✝

إيبارشية أيرلندا وإسكتلندا
وشمال شرق إنجلترا وتخومها
كنيسة السيدة العذراء والشهيدة دميانة
دبلن – أيرلندا

القديس كبريانوس



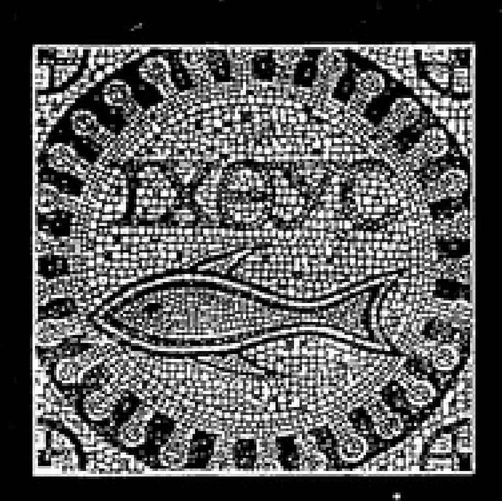
أسقف قرطاجنة الشهيد

(سيرته وكتاباته)

✝

إيبارشية أيرلندا وإسكتلندا
وشمال شرق إنجلترا وتخومها
كنيسة السيدة العذراء والشهيدة دميانة
دبلن – أيرلندا

القديس كبريانوس



أسقف قرطاجنة الشهيد

(سيرته وكتاباته)

✝

سلسلة آباء الكنيسة

إخثوس IXΘYΣ

القديس كبريانوس

St Cyprian of Carthage

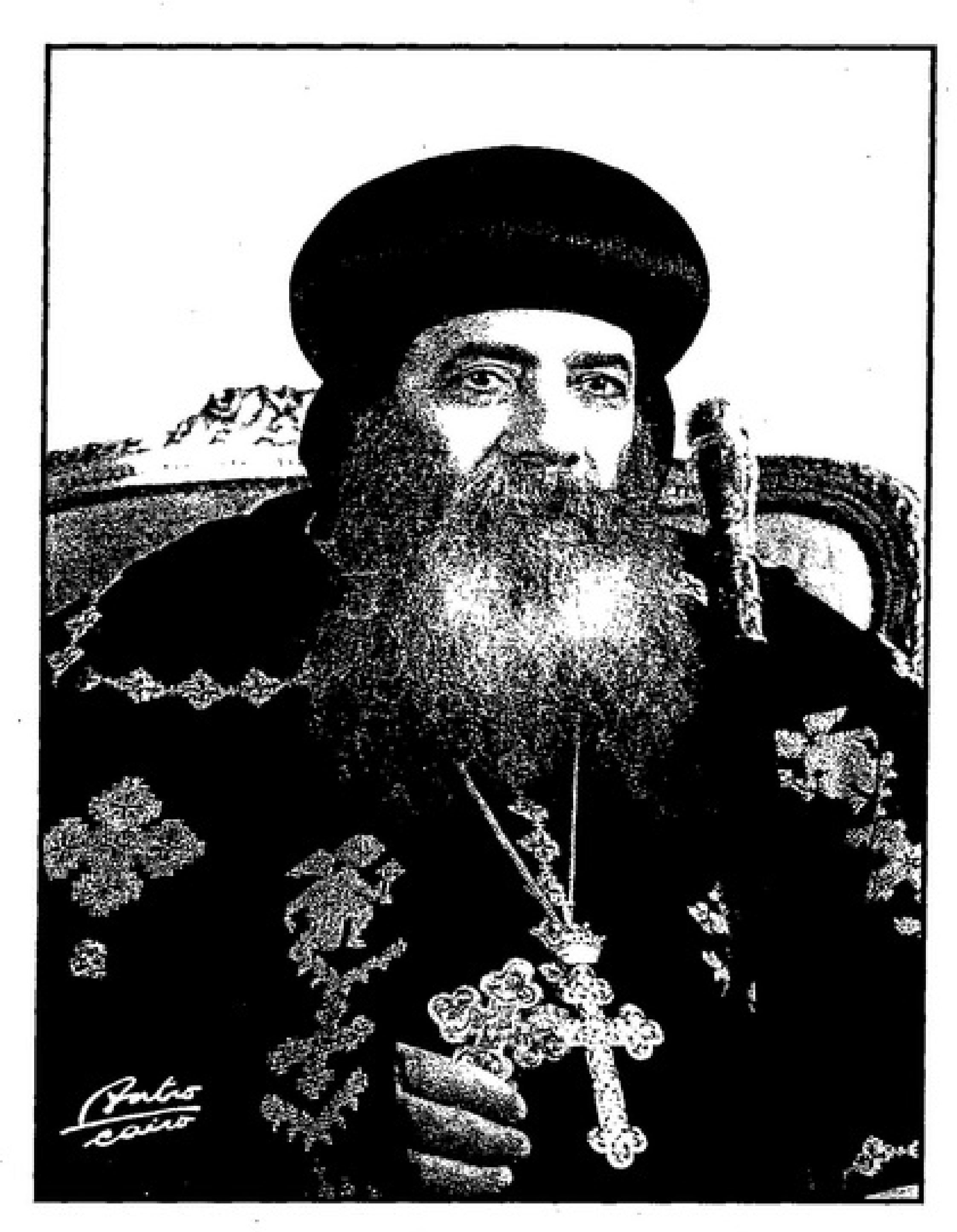
أسقف قرطاچنة الشهيد

(سيرته وكتاباته)

إعداد

القس أثناسيوس فهمى چورچ

اسم الكتـــاب : القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة (سيرته وكتاباته)
إعـــــداد : القس أثناسيوس فهمي جورج
الطبـــعـــة : الأولى - ١٩٩٩
المطبـــعـــة : مطابع كونكورد، ت: ٢٠٥٧٩٠٢ - ٢٠٥٧٩٠٣
رقـم الإيـداع : ٩٩/١٧٤٥٣



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازه المرقسية



نيافة الأنبا انطونى
اسقف ايرلندا واسكتلندا وشمال شرق انجلترا

مقدمة

فى التقليد الكنسى للآباء، يُعتبر التفوق الذهنى مع بلوغ أرقى درجات القداسة والتقوى الشخصية، مؤهلين رئيسيين للمرشح لأسقفية الكنيسة. فأساقفة الكنيسة منذ القديم كانوا مفكرين من الطراز الأول، وكتاباً ملهمين ومُعلمين أجلاء، وكانت الكلمة المنطوقة من على المنبر والكلمة المكتوبة هى أعظم رصيد لخدمتهم.

وقد كانت عظاتهم وكتاباتهم ورسائلهم الرعوية غنية فى التعليم والعقيدة، زاخرة بالإقتباسات الإنجيلية وبشرح الإنجيل وتفسيره، وكذلك بالتوجيهات الروحية الثمينة. فالحياة الروحية فى نظر الآباء لم تكن أبداً بالأمر النظرى، وحتى كتاباتهم اللاهوتية والدفاعية وشرحهم لقانون الإيمان كانت رعوية متسمة بالصبغة العملية البنائية للنفس.

وكنتيجة للمناخ الذى عاشته الكنيسة الأولى، جاءت كتابات الآباء تعبيراً عن الأصداء المحيطة بالكنيسة فى مواجهة الفكر الفلسفى الوثنى وفى مواجهة الهرطقات، فقدمت حقائق الإيمان المسيحى بإتزان ووعى إلهى خاص، بقلم آباء هم أولاً رعاة لكنائسهم يزودون عن الرعية، ويدافعون عن الإيمان ويشرحون الأسفار، ويجتمعون معاً ليصيغوا عقيدة أو بنداً فى دستور الإيمان من الإنجيل المقدس.

إنها ليست مهمة سهلة، تلك هى مهمة التعليم الصحيح فى المسيحية وعلى الأخص حينما يختص الأمر بالعقيدة والسلوك الأخلاقى للمسيحيين،

وفى هذا نجد الآباء يشتركون بنصيب كبير ووافر فى التعليم الأرثوذكسى للإنسان المعاصر. لذا علم آباء الكنيسة هو علم اللاهوت الأبائى، والذين يجهلون إيمانهم إنما يجهلون تعليم الآباء وتقليد الحياة الكنسية غير المتوقف.

حقاً كان الآباء يخاطبون فى كتاباتهم أى مؤمن سواء فى زمانهم أو فى الحاضر مُقدمين بذلك أساسيات حياتنا الروحية وتقدمها، معالجين المشكلات والإهتمامات الواقعية فى مجتمع دائم التغيير، لذا جاءت أحاديثهم وعظاتهم ورسائلهم ومقالاتهم وتفسيراتهم لسد إحتياج يفوق الزمان والمكان، ولتقديم الحق والحياة بما يتجاوز الشك العقلى، لنتأهل لشركة ميراث القديسين فى النور (كو١ :١٢).

ومن بين آباء الكنيسة الذين لهم إسهامات فعالة فيها، يأتى القديس كبريانوس الأسقف والشهيد، الذى قدم بسيرته تعليماً عملياً فى التدبير «الإيكونوميا» والإدارة الكنسية خلال وحدة الكنيسة تجاه الهراطقة، مجسداً أبوة الأسقف ورعاية الراعى، واضعاً أساساً متعدد القوى والصفات: من حيث بساطة الأسقفية ورزانتها، ومن حيث التقوى الكنسية ووحدة الأسقفية والكنيسة والشعب والإستعداد للشهادة.

وهبه الله نعمة رسولية فعلم الأغابى وقدم مثالاً فى الصحو والتعقل، حاضراً مستعداً صاحياً عاملاً فى وسط ضغوط الإضطهاد والإستشهاد، معتدلاً فى مواجهة قضية قبول المرتدين، مثالاً فى الثقة والمجاهرة فى شجاعة أدبية وجرأة مسيحية ومجاهرة كسمة من سمات الشهداء الأولين.

أعطاه الله نعمة وسلطان «ملء اليد» فتأهل للعمل الرعوى بكل مؤهلاته ومسوغاته ومقوماته، كراعى لغنم رعيته، ينام الغنم وكبريانوس لا ينعس ولا ينام، هى لا ترى من أين يأتى عدوها، وهو يراه، لا تعلم أى طعام تأكل فى غدها، وأسقفها قد أعد لميعادها، يشعر بألمها ويحس بإحتياجاتها، وإن استخدم العكاز فلكى لا تتسرب فى دروب الذئاب، يعرف كيف ينقذ أولاده من الضيقة، يرعى قطيعه وبذراعه يجمعها وفى حضنه يحملها ويقود برفق المرضعات ويسند الغنم المشتتة ويربضها.

لم يكن القديس كبريانوس نظرياً ولا لاعباً بالمنطق على مثال الفلاسفة غير المسيحيين، لكنه قدم الحياة مع الله من خلال خبرة الحب الإلهى وتقديس النفس فى الحق، حاشداً لها كل الطاقات البشرية وقواها بعيداً عن النظريات والحدس العقلى، ومن ثم أعد شعبه لشهادة الدم.

ولم يكن أيضاً مؤلفاً لنظريات عن الإيمان، بل عاش هذا الإيمان على أساس يومى، بإعتبار أن الإيمان بدون أعمال والأعمال بدون إيمان هما شيئان مرفوضان معاً فى الكنيسة، فقدم حياته حية ومماتة كنموذج وعلامة إرشاد صادقة وأصيلة، حينما تطابقت سيرته مع أقواله كصانع حقيقى «للرسالة» شارحاً الحق الحقيقى للتعليم مستخدماً كلماته على أساس حياته المبنية على الصخر.

كان القديس كبريانوس جديراً بخدمته وبدرجته الكهنوتية، يستخدم كلتا يديه بمهارة كيد يمنى فتحققت فى حياته كلمات الرسول «بسلاح البر لليمين ولليسار» (٢كو٧:٨) يدرب ويرعى كهنته حسناً، خادماً فى حياته

وكارزاً فى موته شهيداً، آتياً بكل من ينصت إليه نحو المسيح، مفكراً فى كل واحد، معتنياً بكل أحد، عاملاً بأقواله، ومتكلماً بأعماله، عظيماً فى الروح، وسر عظمته فى كونه رسالة أبوية رعوية قابلة للتطبيق فى عصرنا الحاضر.

وكقائد كنسى قاد كبريانوس أسقف قرطاجنة رعيته، وحوّل أولاده ليفكروا ويعملوا ويتصرفوا ويتشكلوا ويتقدموا وينموا بحسب الله ويشهدوا شهادة الدم، بعد أن شدده الله منذ البداية وهيأه ليوالى عمله الأسقفى والأبوى بشجاعة بين المعترفين فى المحاجر والسجون، فكان يقوم بدفن أجساد الشهداء الطوباويين الذين كملوا، بالرغم من الضغوط التعسفية التى كانت تُمارس ضد كل من يفتقد المؤمنين، إلا أن الله لا يعدم وسيلة يقدم بها عزاءً وثباتاً للمضطَهدِين.

قدم القديس كبريانوس الوصايا حية عملية روحية، مختبراً واقعية وغنى الحياة الأرثوذكسية وتقديسها للإنسان وتكريس هذه الظروف كلها لله، معلماً شعبه العقيدة فى توازن، حتى أنه فى قضية المرتدين وقبولهم كان يطلب موافقة شعب الكنيسة ورضاء الأسقف وكان أحياناً يبادر فيطلب من الشعب قبول الراجع والتائب (رسالته ٥٣).

وبالجملة، لقد ترك لنا القديس كبريانوس كنوزاً وكتابات دسمة وغنية تحدث فيها عن «وحدة الكنيسة» وعن «الصلاة الربانية» وعن قضايا «المرتد، الأعمال والصدقات، ثياب العذارى، الموت، فائدة الصبر، والحث على الإستشهاد».

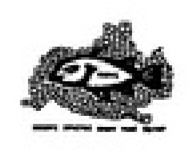
كما ترك «رسالة وداعية» لشعبه، فكانت كتاباته فى مجملها صدى لخدمته ولتدبيره ولأعماله الأسقفية التى تممها بمحبة وصلاح وشجاعة ممتزجة بنشاط وثبات حتى إستشهد عام ٢٥٨م.

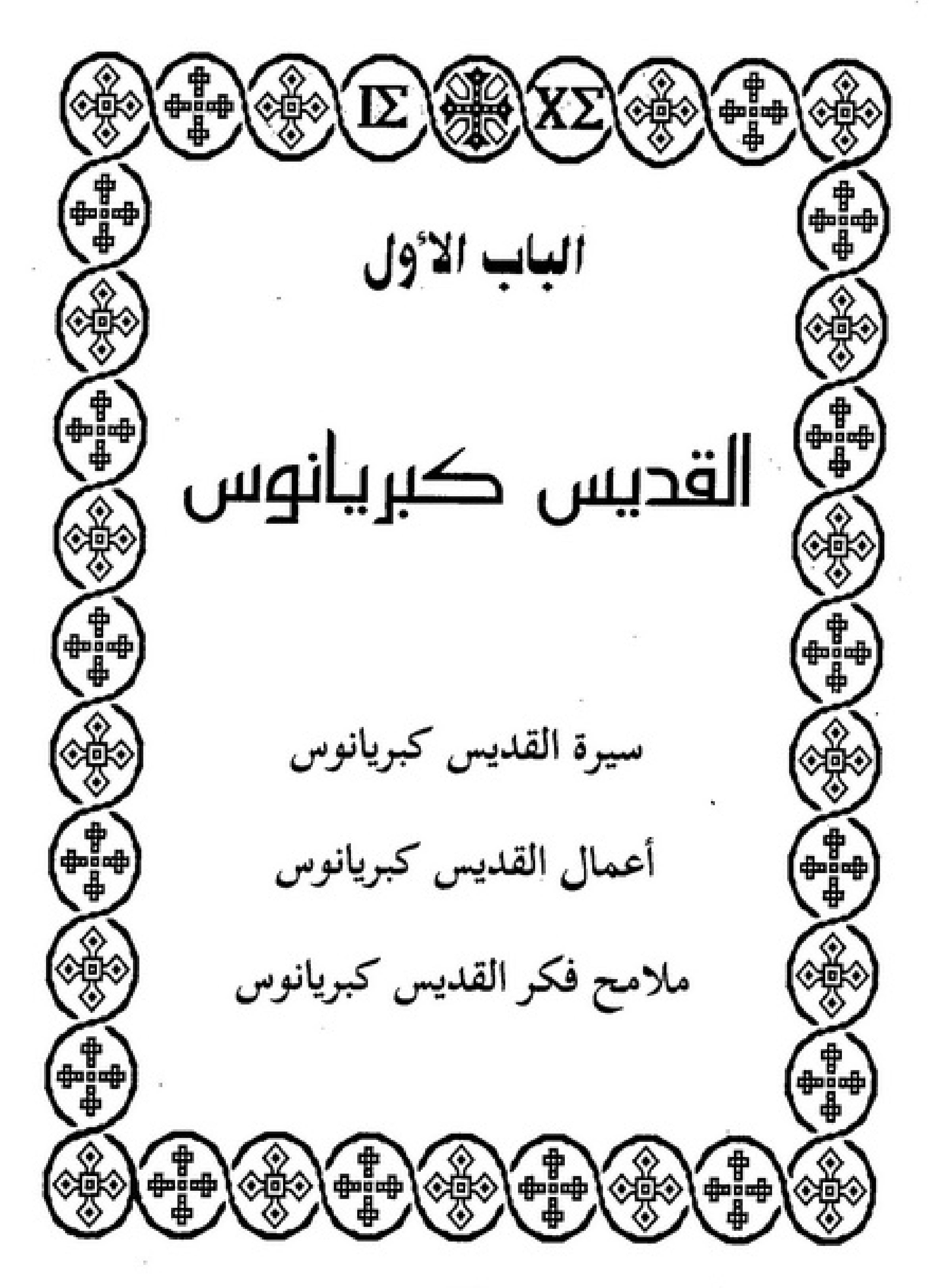
إننى أقدم هذا النموذج الكنسى والرعوى والبطولى الذى للقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة والشهيد ضمن سلسلة **آباء الكنيسة إكثوس** IXΘYΣ لنقتفى أثر قدميه على الطريق سائرين على دروب الرب، طالباً بركته وصلواته.

ولا يفوتنى أن أذكر محبة وتشجيع أبينا الحبر الجليل نيافة **الأنبا أنطونى** أسقفنا المحبوب، الذى يؤازرنا بصلواته وإرشاده، وكذلك مساندة ومساعدة إخوتى **خدام كنيسة السيدة العذراء والقديسة دميانة بدبلن – أيرلندا،** ونعمة ربنا تشملنا جميعاً.

ولله المجد على كل شئ.

القس أثناسيوس جورج
دبلن – أيرلندا
١٨ / ٧ / ١٩٩٩





الباب الأول

القديس كبريانوس

سيرة القديس كبريانوس

أعمال القديس كبريانوس

ملامح فكر القديس كبريانوس

سيرة القديس كبريانوس

يُعتبر القديس كبريانوس ثانى اللاهوتيين الأفارقة الذين كتبوا باللاتينية بعد العلامة ترتليان، وكان القديس كبريانوس أسقف قرطاج محباً للوحدة متعقلاً مدبراً راعياً، لكنه إعتمد كثيراً من الناحية اللاهوتية على ترتليان، ويقول چيروم المؤرخ فى كتابه «مشاهير الرجال»: «كان معتاداً ألا يدع يوماً يمر دون أن يقرأ فى كتابات ترتليان، وإعتاد أن يقول لتلميذه إعطنى المعلم، وكان يقصد بذلك ترتليان معلمه».

وهناك العديد من المصادر التى نستقى منها معرفتنا عن سيرته، وأهمها وأكثرها صحة هى كتاباته ورسائله الكثيرة، أما عن تاريخ القبض عليه ومحاكمته وإستشهاده، فلدينا «أعمال إستشهاد كبريانوس *Acta Proconsularia Cypriani*» والموجودة فى السجلات الرسمية، وأخيرا هناك «حياة كبريانوس» والموجودة فى عدد ضخم من المخطوطات والمفترض أنها كُتبت بيد شماسه بونتيوس *Pontius* الذى شاركه فى منفاه وحتى يوم إستشهاده، فلم يكد كبريانوس الشهيد ينال إكليل الشهادة، حتى إنبرى شماسه وتلميذه بونتيوس فى كتابة سيرته، وقد شابهت سيرة كبريانوس فى الكثير منها سيرة القديس أغناطيوس الأنطاكى، فكلاهما أساقفة وآباء وشهداء، وقد إهتما كلاهما بخدمة الأسقف وعمله، وبوحدة الكنيسة وبحتمية سر الإفخارستيا، وقد تركا كتابات ورسائل رعوية عديدة، صارت تراثاً آبائياً ثميناً.

١) مولده

وُلد وثنياً فى أسرة وثنية، فى الجزء الشمالى لأفريقيا حيث قرطاجنة العاصمة الشهيرة، إلا أن محل وتاريخ ميلاده أمر غير محدد على وجه اليقين، إذ أن كاتب سيرته قد أغفل عن عمد ذكر كل ما يخص حياة أبيه وأسقفه كبريانوس قبل العماد، محتجاً بأن تاريخ الإنسان المسيحى لا يبدأ حقيقة إلا منذ وقت ميلاده من الماء والروح، معتبراً أن الحياة الحقيقية لا تبتدئ إلا بعد المعمودية، ولذلك تعمد الكنيسة الأطفال سريعاً بعد ولادتهم بالجسد لكى يحيوا الحياة الحقيقية.

ويُحتمل أنه وُلد فى بداية الجيل الثالث حيث مدينة قرطاجنة ضمن حدود دولة تونس فى شمال أفريقيا على خليج تونس، وقد وصلت إليها المسيحية حوالى عام ١٥٠م ثم إستولى عليها العرب فى أواخر القرن السابع، بينما وُلد «ثاسكيوس كبريانوس» حوالى عام ٢٠٠م وقبِل الإيمان المسيحى عام ٢٤٦م.

دبرت له العناية الإلهية أداة بشرية لتقوده فى طريق النعمة، تلك الأداة كانت شيخاً فى الكهنوت يُدعى سيسيليوس بمدينة قرطاجنة، فوعظه وعلمه وقاده فى الطريق حتى تحولت حياته، إذ يحدثنا هو نفسه قائلاً بأنه كان خروفاً ضالاً من الحظيرة يتخبط فى الظلمة محروماً فى غفلة من الحقيقة، حتى قبلته مراحم الله وأنعم عليه بالخلاص ووُلد ميلاداً جديداً وترك إنسانه العتيق وطرح الأوثان الباطلة وتجددت نفسه وحياته، الأمر الذى كان يعتبره مستحيلاً.

وبالرغم من أن كبريانوس لم يسجل إعترافاته كما فعل القديس أغسطينوس، إلا أنه تغنى بيوم عماده وتحدث كثيراً عن بركات المعمودية وعن حياته الجديدة، ونحن كذلك نتفق مع بونتيوس ـ كاتب سيرته ـ فى تحفظه عند كلامه عن حياة قد دُفنت فى ماء المعمودية، إذ أن الله يصنع من الخطاة قديسين ومن البعيدين أبراراً ودم المسيح يطهر من كل خطية.

٢) حياته الجديدة

بعد أن ترك حياته العتيقة وقادته النعمة الإلهية ليصير مُعمداً حديثاً وإنساناً جديداً، تغير تغيراً جذرياً فيقول «بعد أن تعمدت إغتسلت من ماضى خطاياى بفعل ماء المعمودية المجدد، وتدفق نور من السماء فى قلبى التائب ليبدد الشكوك ويفتح النوافذ وتنجلى الظلمة، وما كنت أراه من قبل صعباً، صرت أراه سهلاً، وما كنت أظنه مستحيلاً صار أمراً واقعاً، وظهرت لى الحياة الماضية أرضية مولودة من الجسد والآن وُلدت من الماء والروح. هذا عمل الله».

عزم كبريانوس بعد معموديته على أن يحيا حياة البتولية كنذر يُقدم به ذاته لله وكعلامة مرضية قدامه، وكان عزمه هذا مؤسساً على حقيقة أن العدول عن الحياة الحسية أمر ضرورى لإنفتاح القلب والذهن للأمور الإلهية. فباع ضيعته وممتلكاته ـ كما يخبرنا بونتيوس ـ ووزع ثمنها على الفقراء والمعوزين، ولم يستبق لنفسه إلا ما هو ضرورى لمعيشته، عالماً أن الرحمة أفضل من ذبائح كثيرة.

سعى فى حياة النمو الروحى والوصول إلى الله، وترك الأباطيل التى

إرتبط بها منذ ولادته، وإنقطع عن الآداب اللاتينية، مبتدئاً فى دراسة الكتاب المقدس والتلمذة على كتابات آباء الكنيسة وخاصة ترتليان العلامة الأفريقى سلفه، ويرى أحد الكتاب إحتمال أن يكون قد شاهده شخصياً، وقد ظهرت تأثيرات تعاليم ترتليان واضحة على القديس كبريانوس فى كتاباته فيما بعد، لاسيما فى كتابيه «الصبر» و«الصلاة الربانية»... بل كان يردد دائماً لتلميذه «إعطنى المعلم» قاصداً بذلك كتابات ترتليان...

نال نعمة المعمودية فى سنة ٢٤٥م أو ٢٤٦م وتسمى فى المعمودية باسم أبيه الروحى سيسيليوس كبريانوس (وينطق فى الغرب سبريان **Cyprian**)، وما إن نال كبريانوس نعمة الميلاد الجديد حتى سعى إلى الخلوة والنسك وإكتساب فضائل القديسين مجاهداً ضد إنسانه القديم ، فليس أمام نعمة الله شئ عجيب.

لم ينس كبريانوس أبيه سيسيليوس الكاهن، معتبراً أنه قد أخرجه من ظلمة الوثنية إلى نور المعرفة الحقيقية، صائراً له تلميذاً، حتى أصبح ليس فقط غرساً غضاً فى حقل الرب، بل ثمرة يانعة، فنال نعمة الكهنوت، وإزداد فى تواضعه وفضائله وإجتهد فى تعليم الشعب، وكان كبريانوس كاهناً نموذجياً حياً فى كل شئ، كما وصفه تلميذه «**عيناً للكفيف، وسنداً للعاجز، وناصراً للمظلوم**».

٣) أسقفيته

تنيح أسقف قرطاچنة وأخذ الشعب يبحث عن ذلك المُعمد حديثاً، ولم يكن قد مضى على معموديته إلا ربما ثلاثة أو أربعة سنوات، غير أن الشعب كان يرى فيه فضائل الكاهن وسمات الرئيس، لذا رشحوه للأسقفية، ففى أحد أيام ٢٤٩م، هتف الشعب «نريد كبريانوس أسقفاً».

وقد كانت هناك إختيارات لأساقفة مماثلة لإختيار كبريانوس، مثل القديس إمبروسيوس أسقف ميلان، والقديس أغسطينوس أسقف هيبو، وأساقفة آخرين مميزين فى الكنيسة الأولى، كان صوت الشعب هو صوت الله فى إختيارهم.

وما إن سمع كبريانوس برغبة الشعب هذه حتى إنسحب على الفور فى إتضاع، حاسباً نفسه غير مستحق ولا مستعد حتى لمجرد الدعوة لمثل هذه الكرامة العظيمة والمسؤولية الجسيمة وفرّ هارباً.

ويصور بونتيوس هذا المشهد، عندما يروى قصة الجموع الغفيرة التى ذهبت لتأتى به بعد أن إختبأ هو ورفض أن يكون أسقفاً، فحرس الشعب جميع المخارج وحاصروه حتى خضع لنداء الشعب وسلم نفسه إليهم، وسيم أسقفاً فى حوالى سنة ٢٤٩مْ.

وبالرغم من أن البعض عارضوا رسامته أسقفاً، إذ لم يكن الإجماع كلياً، لأن البعض رأوا أنه حديث الإيمان وغير أهل للأسقفية فتذمروا فيما بينهم، إلا أن هذا لم يمنع إرداة الله فى أن يصير أسقفاً، فلا يأخذ أحد هذه الرتبة من نفسه بل المدعو من الله.

وبالرغم من أن معارضيه نصبوا له شراكاً كثيرة، إلا أنه صفح عن إهاناتهم بعمق روحى، وصار رأس كل إكليروس شمال إفريقيا، تلك الإيبارشية المزدهرة النامية.

كان كبريانوس فى أسقفيته خادماً متشبهاً بالمسيح الذى جاء ليخدم لا ليُخدم، حافظاً لنظام البيعة، معُتبراً أن النظام هو كل ما يسوغ للكنيسة أن تكون جسماً حياً لا جثة هامدة، إذ هكذا كان كبريانوس يفهم الكنيسة حتى تجسمت قرطاچنة فى عهد حبريته كرأس ومنارة بديعة، إكليروساً وتقليداً ورهبنة.

حرص على إحترام التقليد وإحياء القوانين فى إيبارشيته، إذ أنه كان مدبراً بارعاً، وما يتخذه من أحكام لا يترك مجالاً للإلتباس، مستمسكاً بمعالم الطريق الضيق الذى لم يخف عنه، لا بنبذ الخطاة لكن بإصلاحهم وإقناعهم وإرشادهم ثم بمعاقبتهم بحسب السلطة الأسقفية التى لم تُعط له عبثاً.

أظهر القديس كبريانوس تدبيراً كنسياً عجيباً، جعل أحد الكُتاب يذكر أنه «**وُلد ليكون رئيساً فى الكنيسة**»، وذلك لموهبته الخاصة فى «الإدارة الكنسية» وقد أكدت سيرته وتدابيره ومواقفه ورسائله على ريادته ككاهن وكاهن وأسقف، محباً بلا تدليل، وحازماً بلا قسوة، فكان مهاباً وجليلاً.

إعتبر كبريانوس أن الكنيسة مؤلفة من الأساقفة ومن الإكليروس ومن الثابتين فى الإيمان، لذا يجب إحترام الأوامر الإلهية وحفظها لأنها أساس الكنيسة، والأسقف هو رأس الكنيسة فى تنظيمها وتدبيرها وسط تقلبات

الأحوال وتتابع الأجيال.

حرص كبريانوس فى إدارته الكنسية على إخوة الأساقفة وشركة الرسل وعدم المجاملة فى مجال العقيدة، وكان يميل دائماً إلى حياة الشركة الكهنوتية، إذ كان وهو أسقف، ودون المساس بالرئاسة الأسقفية، يأخذ مشورة الكهنة العاملبن معه فى كل شئ، ويحترم حق الشعب، وعرف خلال فترة حبريته كيف يجمع الكل فى واحد، ويؤلف بين الحزم واللين والثقة والتقدير لكل العاملين معه.

لم يتساهل كبريانوس فى تنفيذ وصايا الله ولكنه لم يقسو على أحد. لم يكن يفكر إلا فى المسيح، وفى كونه خادمه، وأن عليه أن يتكلم بصراحة وحزم، ولاسيما إذا كان الأمر يتعلق بالإنجيل وبتقليد الكنيسة وقوانينها، لذا لم يكن يعرف فى الحق صاحباً يجامله أو عدواً يخشاه.

اعتبر أن العصاة والهراطقة هم خارج الكنيسة، وهم ضد السلام وضد محبة المسيح، وهم خصوم ومخالفين للمسيح، فالكنيسة واحدة، وإذا كانت واحدة، فلا يمكن أن تكون هنا وهناك، فهى إما هنا أو هناك.

ورفض كبريانوس معمودية نوفاتيان وأتباعه لأنهم لا يمكن أن يعطوا ما لا يملكون، فمعمودية المسيح هى فى كنيسة المسيح، أما معمودية الهراطقة فهى غير شرعية وغير قانونية بل باطلة، ولا توجد إلا معمودية واحدة، والعادة الجارية تقضى بعدم إعادتها، أما من تدنسوا بعماد المنفصلين الهراطقة، فيجب أن يعمدوا عند رجوعهم إلى الكنيسة بعد توبتهم.

٤) محنة الإضطهاد

لم تمض على أسقفية كبريانوس أكثر من عامين حتى شب إضطهاد هائل، يختبر صحة كنيسة أفريقيا الأدبية والروحية، فبينما كبريانوس يسهر على رعيته، يرثى ويتألم ويسند ويرشد ويدبر، وفيما هو قائم بوعى كامل بواجبات وظيفته الرعوية، لا كرئيس ولكن كشريك فى الضيقة، صدر مرسوم إمبراطورى سنة ٢٥٠م بالقضاء على المسيحية، فنال كثيرون إكليل الشهادة وضعف البعض مرتدين، والبعض هربوا، وآخرون حسبوا معترفين.

ومن جراء هذا الإضطهاد المروع ضعف البعض وبخروا للأوثان وأنكروا، وكذا لجأ البعض إلى الحصول على شهادات مزورة تفيد بأنهم قد بخروا للأوثان حتى يهربوا من التعذيب والقتل، والبعض إرتضوا أن تسفك دماءهم من أجل اسم المسيح، وآخرون سجنوا وعذبوا ليحسبوا مع المعترفين.

لقد أحصت الكنيسة كل من أنكر المسيح وذبح للأوثان فى عداد الجاحدين، إلا أنها رأت أن الهرب خير من الجحود، على أساس أن المسيح نفسه إجتاز فى وسط اليهود، وأوصى تلاميذه بالهرب من مدينة إلى مدينة إذا إضطرمت فيها نار الإضطهاد.

لجأ القديس كبريانوس إلى مأوى يمكنه أن يواصل منه تدبير كنيسة قرطاجنة وهى فى أشد الحاجة إليه، ويحث المترددين على الإعتراف باسم المسيح.... يشدد الركب المرتخية، ويدعو المنشقين إلى وحدة الكنيسة وسلامتها، والمخالفين إلى ناموس الحياة الإنجيلية.

وظل يقود الكنيسة من مخبئه ويكتب الرسائل وهو غائب عنها بالجسد.

يشدد ويشجع المعترفين، ساعياً بالكنيسة كلها إلى الخلاص والثبات فى الإيمان، وكان يفتكر فى كل شئ، ويوصى بزيارة المسجونين من أجل الإيمان، هؤلاء المعترفين الذين عذبوا وطرحوا فى السجن، كذلك أوصى الكهنة بأن يذهبوا إلى السجون ليقربوا الذبيحة عند المسجونين، وأن يقوموا بهذه الخدمة بالتناوب، وكانت رسائله مشحونة بالمراجع الكتابية مما يلفت النظر إلى إلهاماته التى خصه الله بها، فقد حرص ألا يخفى شيئاً أو يحتفظ به لنفسه مما يمكن أن يفيد جميع الناس.

وكانت رسائل القديس كبريانوس فى إدارة كنيسته المجاهدة لا تخلو من اللوم، لأنه يعرف أن يصلى ويساعد المحتاجين، يعرف أن يعظ ويعلم وأن يمدح ويكرم الذين صبروا وقاوموا فى حين إستسلم كثيرون.

وقد أدى هذا الهروب المقدس الذى صنعه القديس كبريانوس إلى تمتمات عديدة من بعض المنشقين، لكن كبريانوس كان يشتاق فى أعماقه إلى «معمودية الدم» حتى أنه كتب فيما بعد رسالة عن الإستشهاد، بل كان يتقدم، كما يقول تلميذه، بخطى سريعة نحو الإكليل المعد له، فالذى يختبئ إلى زمان، ويظل أميناً للمسيح، لا يكون قد أنكر الإيمان بل يثبت حتى يحين الوقت المعين له، ويرى بونتيوس أن معلمه قد حفظ وقتذاك «بأمر من الرب».

رفض كبريانوس أن يحل مسألة رجوع الجاحدين بدون مجمع الإكليروس ورضى شعب المسيح، ورأى ضرورة التريث فى قبولهم مع تقديمهم توبة، إذ كان هناك كهنة قبلوا «الجاحدين» بدون إستشارة

الأسقف وبدون إستخدام قوانين التوبة، وأذنوا لهم بتناول جسد المسيح فعادوا سريعاً بدون إعتراف وتوبة فكانت سرعة إعادتهم إلى حضن الكنيسة كسرعة جحودهم لها.

وهكذا كانت المخاطر تحيط بإيبارشية قرطاجنة من داخل ومن خارج، مخاطر الإضطهاد ومخاطر فئة الجاحدين، حيث إختلطت الحنطة بالزوان، والقمح بالتبن فى بيدر القديس كبريانوس، ليس هذا فحسب، بل بدأت متاعب الشقاق من ناحية أخرى تستشرى فى جسم كنيسة قرطاجنة، إذ أن معارضى رسامة كبريانوس أسقفاً إنتهزوا فرصة هروبه وزكوا الشقاق متخذين من مسألة «قبول الجاحدين» فى شركة الكنيسة فور رجوعهم وبدون ممارسة قوانين التوبة، ذريعة لدعوتهم إلى الإنفصال عن رئاسة القديس كبريانوس.

بعد فصح سنة ٢٥١م عاد كبريانوس إلى مقر كرسيه فى قرطاجنة، وقد هدأ الإضطهاد وحان لكنيسة أفريقيا أن تكرم شهداءها وتجمع «المعترفين» حول أسقفها الذى عالج مسألة الجاحدين وبدأ رسالته بهتاف الفرح قائلاً «ها هوذا السلام قد عاد إلى الكنيسة»، وأثنى على من إعترفوا بالإيمان وشمل ثناؤه أولئك الذين هربوا من وجه الإضطهاد، لأنهم أظهروا بذلك عزم إرادتهم على عدم الجحود، وبعد أن تكلم عن سروره وإفتخاره، أظهر تألمه من أجل المسيحيين الذين سقطوا، فالراعى مصاب بجراح الرعية، وكل من يقرأ رسالته المفعمة بشدة عواطفه التى عبر عنها بالألفاظ اللاتينية التى كان يجيدها، لابد أن يحنى رأسه ويتأمل فى كنيسة أفريقيا وهى تعترف بأخطائها.

وإمتزجت رسائل القديس كبريانوس الرعوية بنصيب من المديح ونصيب من التوبيخ، مفكراً فى ساعة وقوف شعبه أمام المسيح فى منتهى الدهر حيث الدينونة، كذلك يدعو من حفظوا الإيمان شهداء (مؤمنيك إحسبهم مع شهدائك) ويدعو من جحدوه أن يسلكوا طريق التوبة للحصول على المغفرة، ويختم القديس كبريانوس رسالته بدعوة الجاحدين ليقفوا موقف التائب المتواضع، فكل خاطئ يجب أن يعترف بخطاياه ويعود تائباً، لأن التائب الحقيقى يمكنه أن ينال من الله الغفران لينال فرصة أخرى للجهاد وللحصول على إكليل الإستشهاد الذى داسه من قبل بقدميه. كما أنه قد ترك باب المصالحة مفتوحاً فى وجه الجاحدين، مع تذكيرهم بما يتطلبه الإنجيل من لزوم التوبة وقانونية الجهاد الروحى.

لقد كان أساقفة أفريقيا يدركون مفهوم الخطية، ويتمسكون بأن يرسخوه فى أذهان الشعب، عندما سمحوا للجاحدين الموثوق بتوبتهم بالعودة إلى الكنيسة لكى يتمكنوا من الإستعداد للجهاد، وكان الدخول فى شركة الكنيسة هو حقاً وفعلاً قبولها إشتراكهم فى جسد المسيح ودمه، وقبول الإشتراك فى السر يجعل المشترك عضوا فى الجسد السرى الذى هو كنيسة الله، فكيف ندعو هؤلاء الجاحدين ليبذلوا دمهم للإعتراف باسم المسيح، إذا حرمنا من يستعدون للجهاد من التناول من دم المسيح؟ كيف نعدهم لشرب كأس الإستشهاد دون أن نقبلهم قبلاً فى الكنيسة للإشتراك فى كأس الرب؟

حرص القديس كبريانوس على عيش وتأكيد وظائف أمومة الكنيسة الثلاث بقوله: «**الكنيسة تلدنا، الكنيسة تربينا، الكنيسة تؤدبنا، فهى لنا**

حضن أبوى، ومائدة وروح عائلى» لذا ساعد الجاحدين الراجعين ليقدموا التوبة المساوية والمناسبة حسب الحق الإنجيلى، وعقد مجمعاً عُرف بمجمع قرطاجنة لتقنين رجوعهم.

لقد إحتمل القديس كبريانوس كل ما يمكن إحتماله، معتبراً أن الطعنات لاشك ليست من المسيح، بل من عدوه، عدو الكنيسة الذى يريد أن يغرقها فى الإضطهاد والإنشقاق والعصيان والأوبئة. وقد أتم القديس كبريانوس جهاده كما قال القديس أغسطينوس «إن دم الشهيد كبريانوس قد تم فيه ما كان قد بدأه ماء المعمودية».

٥) محنة الوباء

إنتشر فى عام ٢٥٢م وباء الطاعون، فنظر الأسقف بعين الأبوة الحانية ونزل ليعتنى بأولاده، ويقول تلميذه أنه كان «طوبيا» زمانه، دون أن يفرق بين مؤمن وبين غير مؤمن.

وعندما حل الوباء، جمع كبريانوس القطيع وخاطبهم ودعاهم إلى البذل وإلى مساعدة كل إنسان مسيحياً كان أو غير مسيحى، وأكد على هذه النقطة، مذكراً إياهم بأن شمس الله تشرق على الأبرار والأشرار، لأننا إذا أحببنا إخوتنا وحدهم، بقينا على مستوى الوثنيين «فهلموا وكونوا بطيبتكم أهلاً لطيبة أبينا السماوى».

وأخذ كل واحد يبذل جهده ليرضى الله الآب والمسيح الديان، ويسر الأسقف الغيور، فكانت المساعدة تتجه رأساً إلى كل محتاج ولا يتقدم أو

يتميز عندها مسيحى على وثنى، حيث قوة الرجاء حية فيهم وصلابة الإيمان وهم أمام عالم ينهار ويخرب، فبقيت أرواحهم صامدة، وشجاعتهم غالبة، ونفوسهم واثقة دائماً بالله وصبرهم لم يفقد الفرح.

أوصى كبريانوس شعبه بضرورة تقديم الصدقات وأعمال الرحمة لأنها تغفر الخطايا، كما حثهم على البذل والسخاء، فسعادة المسيحى هى السماء، ومكان محنته الأرض، والممر من المحنة إلى السعادة هو الموت، ونحن مع ذلك نخاف أن نمضى إلى السعادة، ولماذا هذا الخوف؟ لأنه ينقصنا الإيمان. إننا فى بيت الإيمان فى الكنيسة وليس عندنا إيمان.

٦) الإضطهاد الثانى

أُثير الإضطهاد على المسيحيين فى عهد هذا القديس مرتين: الأولى بأمر الإمبراطور داكيوس عام ٢٥٠م والثانية بأمر الإمبراطور ڤاليريان عام ٢٥٧م، وكان كبريانوس يرى عظم الفائدة الروحية للمؤمنين من هذه الإضطهادات، إذ أنه اعتبر أن السلام الذى كانت الكنيسة قد تمتعت به قد أضعف روح التيقظ والمجاهرة بالإيمان عند الكثيرين بما فيهم حديثى الإيمان، ودب فى قلوب الجميع إرتخاء روحى، لذلك لما أُمتحنت فضائلهم فى محنة الإضطهاد الأول أعوزت الكثير منهم الشجاعة ليواجهوا المحاكمات.

ويقول الشماس بونتيوس عن إختفاء كبريانوس فى فترة الإضطهاد الأولى أن ما حدث بعد إختفائه قد أثبت أنه لم يكن جبناً بل أنه بالحق كان إلهياً، لأنه لم يختر الإستشهاد لخلاص نفسه وحده بل إختار الإختفاء

لمنفعة الرعية، مُعتبراً أن إكليل الشهادة سيُعطى له بنعمة الله ولا يمكن أن يناله قبل الوقت المعين، فالذى يعتزل لوقت ما ويظل مخلصاً للمسيح لا ينكر إيمانه ولكنه فقط يؤجل وقته المعين له.

لقد عالج كبريانوس جراحات شعبه فى فترة إختفائه بالدواء السمائى، كما لو أنه يحمل طبيعة الجرّاح تارة بالتضميد وتارة بالقطع، وهكذا حفظت العناية الإلهية هذا الأب الروحانى المليء بالفضائل ليقود دفة الكنيسة رغم عنف الإنشقاقات من الداخل ورعب الإضطهادات من الخارج.

لقد إستبقته الخطة الإلهية بتدبير سمائى، فمنْ كان سيقيم من المسيحيين مثل هؤلاء الشهداء العظام برسائله وعظاته الذهبية؟ ومن كان سيشجع معترفين هذا عددهم لتُختم قلوبهم للرب حتى حفظوا أحياء خالدين فى المسيح لأنه ألهب غيرتهم كما ببوق سمائى.

شدد كبريانوس عزائم رعيته برسائله المتوالية، مُعتبراً أنهم الأصيلون فى الإيمان وأحباء السيد المسيح، موصياً إياهم ألا يبغضوا مضطهديهم بل يصلوا لأجلهم ويحبونهم، فإنتفعت الكنيسة من عدم تسليمه نفسه للموت، فقد أراد الرب تأجيل ذلك لمدة سنة، ليكرس كبريانوس العناية للذين فى السجون وليحث كهنته أن يزوروهم ويعطوهم سر الشركة المقدسة فى زنزاناتهم، وكم إعتنى بأجساد الشهداء وأرسل فى الليل منْ يحملون أجسادهم ويدفنونهم وكم كان يؤازر الذين تحت العذاب ويساعد أهاليهم.

اعتبر كبريانوس أن الإضطهادات والعذابات هى أزمنة «ضد المسيح» (١يو٢: ١٨، ٢يو٧) المشابهة لأواخر الأيام، ومن ثمّ أعد القلوب وشجع

نفوس أولاده ليكونوا جنوداً للمسيح، وليكونوا مستعدين للجهاد السمائى. يثبت إيمانهم ويسلحهم بكلمة الله، ويعد شعب الله الذى أؤتمن عليه ليكون كجيش فى المعسكر السمائى يواجه سهام وأسلحة الشيطان، فلا يمكن لمَن لم يتمرن على القتال أن يكون جندياً صالحاً للرب أو أن يفوز بإكليل الجهاد.

ويذكر كبريانوس أن أبليس عدونا هو عدونا القديم ذاك الذى نصارع ضده، فالقديم سدد أول هجماته على الإنسان، ومنذ ذلك الحين تحنك وإختبر كل فنون وفخاخ التجارب التى يلقيها علينا، وإذا وجد جندى المسيح غير معد وغير مهيئ وغير مبال أو ساهر بكل قلبه، فهو يطوقه ويخدعه فى جهالته وغفلته، أما الإنسان الذى يحفظ بوصايا الرب فى سلوكه ويظل ملتصقاً بالمسيح بشجاعة فلابد أن يغلب عدوه، لأن المسيح الذى يحيا فى المؤمن المُعترف به لا يُقهر!!

وينادى كبريانوس أولاده قائلاً: «ها أنا أرسل لكم ثوب الأرجوان الذى للحمل الحقيقى الذى فدانا وأحيانا، لكى تفصلوه لأنفسكم فيصير ثوباً خاصاً بكم لأن الذين أتوا من الضيقة العظيمة قد غسلوا ثيابهم وبيضوها فى دم الخروف (رؤ٧:١٤) وذلك حتى يتغطى عُرينا القديم بثياب المسيح: ثياب تقديس النعمة السمائية».

وينبه كبريانوس شعبه قائلاً: «لقد إختبرنا، بتدبير الرب، المعمودية الأولى. فليكن كل واحد منا مستعداً للمعمودية الثانية أيضاً، متيقنين أن نعمتها أعمق وقوتها أعظم وكرامتها أثمن من الأولى. إنها تلك التى يعمد بها

الملائكة الشهداء: معمودية الدم التى يتمجد بها الله ومسيحه، المعمودية التى لا يخطئ بعدها أحد، المعمودية التى تكمل إيماننا، المعمودية التى إذ ننسلخ فيها من العالم نتحد فى الحال بالله. فى معمودية الماء ننال غفران خطايانا، أما فى معمودية الدم فننال إكليل كل الفضائل، هذا الذى نحتاج أن نتوسل طالبين إياه فى كل تضرعاتنا حتى نصير نحن ـ خدام الله ـ أحباء الله».

ويشجع القديس كبريانوس شعبه على الإستشهاد معتبراً أن الذى فينا أعظم من الذى فى العالم، وأن الرب وعدنا بالأمان والحماية، ذاكراً عناية الله بنا والتى هى أقوى من كل هجمات العدو، مع عرضه لمكافأة الرب للشهداء والجزاء الذى يفوق بلا قياس آلامهم، قائلاً: «فى الإضطهاد تُغلق أمامنا الأرض وتُفتح أمامنا السماء، ضد المسيح يهدد ولكن المسيح يحيى، الموت يقترب منا ولكن يتبعه الخلود، حياتنا الزمنية يُقضى عليها ولكن حياتنا الأبدية تصير مضمونة! أى مجد هذا عندما نذهب من هنا فرحين ونرحل ممجدين بين الضيقات والعذابات!! ففى لحظة نغلق عيوننا التى نرى بها البشر والعالم، وفى الحال نفتحها لنتطلع إلى الله ومسيحه!! أى تصور لهذا الرحيل المبارك! إنك تنتزع فجأة من الأرض لتُوضع فى الملكوت السمائى».

ويؤكد كبريانوس على الجعالة السمائية وعظم تقدمة الإستشهاد وقبولها لدى الله بإيمان غير فاسد وفضيلة راسخة وقلب مكرس ومقدس، تلك التى تجعلنا نرافق الرب عندما يأتى فى الدينونة ونقف بجانبه عندما يجلس ليدين، ونصير شركاء ميراث المسيح ونتساوى مع الملائكة والآباء والرسل والأنبياء،

ونفرح بإمتلاكنا للملكوت السمائى.

عندما علم القديس كبريانوس فى منفاه أن بعض الكهنة قد قُبض عليهم وساقوهم إلى المحاجر وإلى مناجم الذهب والفضة، وأنهم يسخرونهم كالعبيد الأسرى فى تلك الأشغال الشاقة ويموت منهم الكثيرون من شدة العذاب، كتب إليهم يعزيهم قائلاً: «لا عجب إن كان الولاة قد أرسلوا إلى مناجم الذهب والفضة آنية كريمة من الذهب والفضة، ولكن العجب هو فى كون تلك المناجم التى إعتادت أن تعطينا هذه الكنوز الثمينة صارت هى تأخذ منا. لقد وضعوا الأغلال فى أرجلكم وشدوا الوثق فى أجسامكم التى هى هياكل الله الحى، ولكن هل إستطاعوا أن يوثقوا نفوسكم؟ هل إستطاع حديدهم أن يمتد بصدئه على ذهبكم؟ إن أغلال الشهداء لا تعيرهم، بل إن أغلالكم هى أكاليل لكم. يا أيتها الأرجل المكبلة بالأغلال! ليس من بشر يفك قيودك بل الله بنفسه هو الذى يحلها».

ولما علم كبريانوس أن مطرقة من خشب سقطت على ظهر أحد الشهداء، اعتبر أن هذه الخشبة يجب أن تذكرنا بخشبة الصليب التى سمر عليها ربنا يسوع، فالمسيح قد خلصنا بخشبة الصليب لذا صار طبيعياً أن يبلغ المسيحى إلى الخلاص بالخشبة وأن يُحكم على المسيحيين أن يعملوا فى المناجم، كذلك يساند كبريانوس أبناءه حتى لا يحزنوا من حرمانهم من القربان المقدس، لأنهم صاروا هم أنفسهم قرباناً مقدساً مقبولاً عند الله.

وهنا نقدم الرسالة الوداعية لهذا الأسقف الجليل:

«كبريانوس إلى الكهنة والشمامسة وكل الشعب

سلام

عندما علمت أيها الأحباء أن الجنود قد أرسلوا ليحضرونى إلى أوتيكا، شجعنى الإخوة أن أنسحب، ذلك أنه يليق بالأسقف أن يعترف بالرب فى نفس المدينة التى يرأس فيها كنيسة الرب، كى يتمجد الشعب كله بإعتراف أسقفهم فى حضورهم، لأن كل ما يقوله الأسقف المعترف فى لحظة إعترافه وشهادته إنما يقوله بفم الجميع بوحىٍ من الله، لكن كرامة كنيستنا المجيدة سوف تنتقص إن كنت ـ وأنا أسقف مقام على كنيسة أخرى ـ أنال حكمى وإعترافى فى أوتيكا، وأمضى من هناك شهيداً إلى الرب، بينما أطلب بتضرعات دائمة وأتوسل بكل طلباتى لأجلى ولأجلكم كى أعترف وسطكم، وأن أتألم وسطكم، ثم إنطلق إلى الرب كما يجب علىّ.

لذلك هنا فى ملجأى أنتظر وصول الحاكم عائداً إلى قرطاجنة كى أسمع منه ما أمر به الأباطرة بخصوص المسيحيين العلمانيين والأساقفة، وكى أقول ما سوف يريد الرب أن يُقال فى تلك الساعة.

لكن إحفظوا السلام والهدوء أيها الإخوة الأحباء حسب الذى تسلمتموه من وصايا الرب، وحسب ما تعلمتموه من عظاتى، ولا تدعوا أحداً منكم يثير أى متاعب للإخوة أو يقدم نفسه بإرادته للأمر، بل عندما يُقبض عليه ويسلم، عندئذ ينبغى أن يتكلم بقدر ما يتكلم الرب الساكن فينا فى تلك الساعة. أما عما يجب أن نفعله حتى يحكم علىّ الحاكم أن

أعترف باسم الله، فسوف نقرره معاً فى الوقت المناسب بحسب تعليم الرب.

ربنا يحفظكم سالمين آمنين فى كنيسته.
ليكن ذلك برحمته.

كبريانوس
أسقف قرطاچنة»

٧) إستشهاد القديس كبريانوس

فى محنة الإضطهاد الثانى عام ٢٥٧م صدر مرسوم بإعدام رجال الدين المسيحى، وعندما سمع الحاكم الرومانى لشمال أفريقيا بأمر ڤاليريان الإمبراطور، أمر بالقبض على كبريانوس الأسقف الذى أعلن أنه مسيحى وأسقف.

وكانت الشرطة تريد أن تنقله إلى أوتيكا عند الوالى، إلا أن كبريانوس أراد أن يعلن إيمانه حيث موطن جهاده بقرطاچنة حيث تم القبض عليه وإحتشدت الجموع ليحوطوا أسقفهم بصلواتهم ووفائهم.

وفى الصباح مضى به الجند إلى الوالى ومروا فى طريقهم إليه بأحد الملاعب، فإتخذ بونتيوس تلميذه من ذلك صورة واقعية ليبين أن كبريانوس كان يجرى فى سيره نحو المسيح جرى المصارعين المجاهدين، ويصف بونتيوس مشاعر أسقفه الأخيرة، وكيف أنه كان يتوق إلى معمودية الدم، وكيف كان يردد «هناك.. فوق فقط، السلام الحقيقى، الراحة الأكيدة، الدائمة، الثابتة.... الأمان الأبدى.... هناك بيتنا، ومستقرنا، فمنْ لا يسرع إليه».

وبعد القبض عليه قضى كبريانوس مدة سنة فى المنفى، ثم أكمل شهادته بقطع رأسه، وصار له المنفى مثلما كانت بطمس ليوحنا الحبيب مجالاً للرؤى الإلهية والتعزيات، حيث رأى ما هو عتيد أن يحدث له، وفى أثناء نفيه كتب الكثير عن الإستشهاد من خلال معايشة حية، على نحو يخزى هؤلاء الذين إفتروا عليه فى هروبه أثناء الإضطهاد الأول.

وبعد سنة من النفى أعادته السلطات المدنية إلى قرطاچنة، حيث ثبت وجهه نحو يوم عرسه وإكليله الذى كان يقترب منه بسرعة، فكان يزداد لهفة وإشتياقاً لأن يموت داخل المدينة التى كان يرعاها حتى يكمل خدمته الأسقفية بختم دمه المسفوك، إذ أنه إعتبر إستشهاده خارج المدينة جرحاً لشرف كنيسته (رسالته رقم ٨١).

لهذا حقق الله سؤال قلبه، ففى يوم ١٣ سبتمبر لعام ٢٥٨م تم القبض عليه، حيث خرج مع العسكر بروح عاليه ونظرات باشة تعكس شجاعة وسلام الأبطال، وهكذا سار موكبه بعد أن أركبوه فى مركبة وجلسوا عن يمينه ويساره، ليصير حتى فى يوم إستشهاده فى صورة رسمية كما يقول بونتيوس.

وإنتشر الخبر فى المدينة فهرعت الجموع وتقاطرت حول راعيها لتحوطه بوفائها وسهرها وهو فى طريقه إلى المجد الأبدى، حيث أحاط بالقديس كبريانوس جمع غفير وعسكر بلا عدد حتى أن بونتيوس يقول «إنهم كانوا كغازين للموت نفسه!!».

وكان الحماس يتقد فى قلوب رعية قرطاچنة حتى بدوا فى سيرهم

وكأنهم يركضون، فالشوق والفرح والحزن والوفاء والغيرة إختلطت معاً فى صدورهم، وكأن كنيسة إيبارشيتهم جالسة على رابية الجلجثة تسجل على قلبها أفخر تيجانها وروح أسقفية شفيعة عنهم جميعاً، وعيونهم ساهمة شاخصة إلى ما وراء قرطاجنة والأرض كلها، نحو السماء موطن الشهداء المعد.

وفى هذه الملحمة إلتأمت جماعة المؤمنين والكهنة يودعون أسقفهم.... يتعانقون والدموع تذرف من عيونهم ذرفاً وبدا الموقف رهيباً والصمت يخيم على الجميع، وكبريانوس فى وسط الجماعة، شامخ فى هدوئه ورزانته متحلياً برجاء وإيمان يفوقان الوصف!!

لقد خط هذا الركب على جبين الكنيسة لحناً حزيناً مجيداً صادقاً إمتزج بالعبادة والتسبيح والإستعداد للشهادة، وتوج جبينها بتاج مجد على رأسها مرصع بالدموع وبقلادة بطولة حمراء لجهاد مظفر فى ساحة الإستشهاد عبر الأجيال. فبينما تضطهد الكنيسة، كانت تجدد القوة كل صباح، وروح الله يلم شملها ويوحد صفوفها فيعلو صوتها وتزداد هيبتها نمواً.

وعندما وصل الركب إلى دار الولاية، حيث كان اليوم حاراً والسير مجهداً، كان كبريانوس غارقاً فى عرقه، آخذاً منه الإعياء كل مأخذ، فتقدم إليه أحد الضباط ليعرض عليه ملابس جافة، مؤملاً أن ينال ثياب الأسقف ليحتفظ بها ككنز من شهيد عظيم، إلا أن كبريانوس الذى وشك أن يسفك دمه برضى كامل، لم يهتم بعرق الجسد المتصبب، إذ أن الذى

يسفك دمه لا يحسب لعرقه حساباً.

ودخل كبريانوس أحد غرف دار الولاية، وهناك جلس على كرسى تصادف أنه كان مغطى بالكتان، وعلى الفور يعلق بونتيوس على ذلك قائلاً أن النعمة الإلهية أرادت أن يكون كاهن الله متمتعاً بكرامة الأسقفية حتى فى وقت آلامه.

وما هى لحظات حتى مثل القديس كبريانوس أمام الوالى جاليريوس فى محاكمة وقرأ الوالى عليه الحكم هكذا: «لقد عشت طويلاً فاسد المذهب ولم تضح للأوثان ونصبت نفسك عدواً لآلهة الرومان وخالفت الأباطرة ڤاليريان وجاليان ولم يردعوك، وجمعت حولك شركاء كثيرين فى رفقة غير شرعية وصرت قائداً لهم لذا ستصير عبرة لمن أغويتهم بمثلك وسيصير دمك تثبيتاً لشرائع الإمبراطورية وعندئذ يسود النظام».

وعندئذ تم النطق بالحكم على القديس كبريانوس الأسقف: «قضت المحكمة بإعدام كبريانوس بحد السيف». وعندما سمع كبريانوس هذا الحكم، كان كأنه يقدم ذبيحة القداس الإفخارستية، فمثلما يقول عند ختام الذبيحة الإلهية قال «الشكر لله، اشكر الله وأباركه». فالشهيد يرى فى سر الإفخارستيا شركة فى موت الرب وقيامته، لذا مسيرة الشهيد متماثلة تماماً مع وليمة العشاء السرى، فهى مثل الإفخارستيا تستمد كل قيمتها من آلام الرب.

لذا قدم القديس كبريانوس إستشهاده كما لو كان ذبيحة إفخارستيا، فقوله «الشكر لله» إنما هو تعبير إنتقاه لوصف الإستشهاد له نفس الصدى

الليتورچي، وهكذا يبدو الإستشهاد لكبريانوس مثل تقدمة ليتورچية جماعية...

إنها أعظم شهادة صدرت من هذا الإنسان الوثنى الموعوظ الكاهن الأسقف والشهيد، إنها شهادة إلهية حقاً عندما أعطى نفسه مثالاً لشعبه فى الشهادة لأجل فاديه. ولما سمع المؤمنون الحكم صاحوا قائلين «لتقطع رؤوسنا معه» كدليل على تعلقهم براعيهم.

إنه الإيمان الذى نقل الجبال، إيمان الشهادة الجماعية والفردية لاسم المسيح، واليوم أتيت إيبارشية قرطاجنة بكل طغماتها وخوارسها لتعاين كبريانوس أسقفها وهو يقدم نفسه ذبيحة. إنه إيمان الشهداء يسلم لأبناء الشهداء، وهو فيهم لكنز سمائى، يدفعهم ليطلبوا أن يقدموا نفوسهم للإستشهاد مع راعيهم وأسقفهم الشهيد الذى مات ميتة مجد الله بها (يو٢١: ١٨) وكأن كل إنسان فى تلك القرون الأولى كونه يكون مسيحياً معناه أن يصير شهيداً إن لم يكن بالفعل فعلى الأقل فى قلبه «إنى بإفتخاركم الذى لى فى يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم» (١كو١٥: ١٣).

تبعته كل هذه الجموع إلى مكان الإعدام حيث أُقتيد خارج المدينة وسط حشد لا يحصى، بعضهم تسلق الشجر لتوديع أسقفهم، وهرع آخرون يتسلقونها كما فعل زكا من قبل، لكى يشاهدوا «موت المسيح فى شخص الأسقف أيقونة المسيح» كما يقول بونتيوس، والعجيب أن هذا الراعى الساهر، حتى فى أثناء سيره هذا، لم ينس فى زحمة الركب أن يواسى الفقراء والبائسين ويشجعهم ويوصى بهم!!

تاركاً وراءه شعبه الحزين يبكى ويصلى ويترسم خطاه، ويردد أصداء تعاليم أسقفه المزمع أن ينال إكليل الشهادة، متمنين أن يشاركوه فى هذا النصيب الطاهر ليصطبغوا بالدم ويعبروا.

وعندما أتت لحظة الإنطلاق خلع كبريانوس ثياب الحبرية وأعطاها للشمامسة، وألقى كلمة صغيرة مشجعاً ومعزياً شعبه، وجثا على ركبتيه مصلياً، ثم رأى أن السياف المُكلف بتنفيذ الحكم كان يحمل السيف مرتعداً، فأعطاه ٢٥ قطعة من الذهب تشجيعاً له، ثم عصب عينيه بذات يديه مسلماً ذاته ليد ربنا يسوع المسيح رئيس كهنة الخيرات العتيدة، وهرع أولاده يفرشون ثيابهم ولفائف ومناديل من تحته ليلتقطوا بها دمه الطاهر بركة لهم. وأخيراً قبض السياف بيده المرتعشة على سيفه لتأتى اللحظة المعينة من الله ليتمم مسرة الله فى قديسه ونفذ الحكم.

وتدحرجت رأس كبريانوس الجسدية على الأرض وصعدت روحه منطلقة مبتهجة متهللة إلى مسيحها لترث نصيبها المعد لها مع الشهداء، وليكون أول أسقف يستشهد فى مقاطعته سائراً على طريق الرسل، وستظل أسقفيته ورسائله باقية حية تحمل لنا أغلى ذكرى لأفخر أيام فى تاريخ أسقف شهيد من القرن الثالث الميلادى.

وهكذا رأى الشعب أحاديث راعيه وعظاته تتحقق عملياً أمام عينيه ليس كلاماً أو كتابة، وإنما دماً وفعلاً، وصار كبريانوس أول أسقف يصبغ تاجه الكهنوتى بدم الإستشهاد فى قرطاجنة، وهكذا توج كل أعماله المقدسة بأن زين شارة كهنوته السمائى بدمه الثمين.

ثم حمل المؤمنون جسده ليلاً بالشموع والمشاعل مع الصلوات بمشاعر النصرة إلى مقره الأخير، وبعد أيام قليلة مات الوالى جاليريوس الذى حكم عليه، وبنيت بعد ذلك كنيستان واحدة فوق مكان إستشهاده والأخرى عند مكان دفنه. وهكذا ظل اسمه ويوم إستشهاده محفوظين فى ذاكرة الكنيسة التى تحتفل به حتى الآن.

هذا وقد ألقى القديس أغسطينوس فى ذكراه خمسة عظات ما زالت باقية حتى الآن، وتحتفل الكنيسة الرومانية بذكرى إستشهاده، أما فى الكنيسة القبطية، فقد حدث خلط بينه وبين سميه أسقف أنطاكية الشهير بكبريانوس الساحر من قِبل بعض الكُتاب.

بركة الشهيد كبريانوس فلتكن معنا آمين.



أعمال القديس كبريانوس

كان النشاط الأدبى للقديس كبريانوس مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بحياته وعصره، وقد كتب أعماله كلها لأجل مناسبات معينة ولخدمة أهداف رعوية عملية، إذ كان كبريانوس رجل عمل يهتم بإرشاد وتدبير النفوس أكثر مما يهتم بالمباحثات والمجادلات اللاهوتية، وكانت حكمته العملية تتجنب المبالغات التى أضرت بالعلامة ترتليان، وكانت لغته وأسلوبه أكثر وضوحاً ورقة من ذلك الأخير، وتوضح تأثره الكبير بلغة وتشبيهات الكتاب المقدس، لكن إعجابه بترتليان واضح جلى من حقيقة أن هذه الكتابات تُجسد أفضل أفكار معلمه ترتليان، وفى العصور الوسطى كان كبريانوس واحداً من أشهر الكتاب، ووُجدت كتاباته فى عدد ضخم من المخطوطات.

ولدينا ثلاثة قوائم قديمة بأعماله، الأولى موجودة فى سيرته التى كتبها شماسه بونتيوس *Pontius* الذى يصف فى الفصل السابع فى شكل أسئلة محتويات الإثنى عشر كتاباً كما تظهر فى المخطوطات القديمة.

والقائمة الثانية نشرها مومسن *Mommsen* من مخطوطة رقم (*No. 12266 s.X*) فى مكتبة فيليب فى شيلتينهام عام ٣٥٩م ويذكر أيضاً عدداً من الرسائل.

أما القائمة الثالثة فنجدها فى عظة للقديس أغسطينوس عن القديس كبريانوس نشرها چ. مورين *G. Morin*.

أ) الكتب

١) إلى دناتوس *To Donatus*

هو أقدم كتابات القديس كبريانوس، وقد أرسله إلى صديقه دوناتوس، يصف فيه التأثير الرائع للنعمة الإلهية فى قبوله للإيمان المسيحى، التى قادته خلال سر التجديد من الفساد والعنف والبربرية التى للعالم الوثنى، ومن العمى والخطايا والشهوات التى لحياته الشخصية السابقة، إلى سلام وفرح إيمانه المسيحى، وهذا العمل يذكرنا بإحدى إعترافات القديس أغسطينوس عندما «يعترف» كبريانوس بسقطاته وفى نفس الوقت يعترف بمجد الله.

وإذ كُتب بعد معمودية كبريانوس بفترة قصيرة، والتى كانت فى الغالب فى عشية عيد القيامة عام ٢٤٦م، لذلك لا يكتفى الكتاب بتبرير وشرح أسباب قبول كبريانوس للإيمان المسيحى، بل يدعو الآخرين أيضاً ليتبعوا نفس مسلكه.

٢) ثياب العذارى *On The Dress of Virgins*

كأسقف مهتم بالتلمذة المسيحية، يخاطب كبريانوس فى هذا الكتاب العذارى ويعلمهن عن مخاطر العالم الوثنى بكل شروره وأباطيله التى تحيط بهؤلاء اللائى كرسن بتوليتهن للمسيح، وعرائس المسيح يجب أن يلبسن ثياباً بسيطة ويبتعدن عن المجوهرات والتزين والمساحيق التى ليست إلا إختراعاً من صنع الشياطين.

وإذا كانت العذراى ثريات، فيجب أن يستخدمن غناهن ليس لمثل هذه الأمور، بل لأجل أهداف صالحة، مثل مساعدة الفقير، وستجد أيها القارئ العزيز عرضاً شاملاً لهذا الكتاب كله فى القسم الخاص بفكر القديس كبريانوس.

وفى الغالب كتب القديس كبريانوس هذا العمل بعد سيامته الأسقفية عام ٢٤٩م بزمان قليل، والمصدر الأساسى الذى اعتمد عليه كبريانوس هو كتاب ترتليان ١«عن ثياب النساء *De Cultu Feminarum*».

وقد إمتدح القديس أغسطينوس هذا العمل وأسلوبه واعتبره نموذجاً يجب أن يقتدى به الواعظون.

٣) عن المرتد

كتب كبريانوس هذا العمل بعد عودته من مخبأه أثناء إضطهاد ديسيوس فى ربيع عام ٢٥١م، وبعد أن يشكر الله على إعادة السلام، يمدح كبريانوس الشهداء الذين قاوموا العالم والذين قدموا مشهداً مجيداً فى عينى الرب وكانوا مثالاً وقدوة لإخوتهم، وعلى أية حال، سرعان ما يتحول فرحة إلى حزن بسبب سقوط الكثيرين أثناء الإضطهاد وضعفهم، ويتحدث عن هؤلاء الذين ضحوا للآلهة حتى قبل أن يرغموا على ذلك، وعن الوالدين الذين جعلوا أطفالهم يشاركون فى هذه الطقوس، وخاصة هؤلاء الذين أنكروا الإيمان بسبب محبتهم العمياء للقنية، ولا يمكن أن يُعطى لهم الغفران بسهولة، ويحذر المعترفين من التشفع لهؤلاء الناس، وقال أن التساهل معهم لن يؤدى إلا إلى منعهم من تقديم التوبة المناسبة، وفقط

هؤلاء الذين ضعفوا بسبب عذابات عظيمة يستحقون الرحمة. على أية حال، هؤلاء جميعهم يجب أن يخضعوا لقانون التوبة، وحتى هؤلاء الذين إستطاعوا أن يقدموا شهادات بأنهم ذبحوا للأوثان دون أن يدنسوا أياديهم بمشاركة فعلية فى هذه العبادات الوثنية يجب أن يخضعوا لقانون التوبة لأنهم دنسوا ضمائرهم.

وقد قُرأ هذا الكتاب فى المجمع الذى عُقد فى قرطاج فى ربيع ٢٥١م وصار أساس الإجراءات الثابتة التى تتخذ فى موضوع المرتدين الصعب فى كنيسة شمال أفريقيا كلها. ونقدم فى الفصل التالى عرضاً شاملاً لهذا العمل.

٤) وحدة الكنيسة The Unity of The Church

كان لكتاب وحدة الكنيسة تأثيره القوى دائماً، وهو يقدم لنا مفتاح شخصية كبريانوس وكل ما كتبه، سواء كتب أو رسائل، ويبدو أنه قد كُتب بالدرجة الأولى بسبب إنشقاق نوفاتيان وكذلك بسبب إنشقاق فليسيسيموس *Felicissimus* فى قرطاج، وأغلب الظن أن كبريانوس كتب هذا العمل بعد عودته إلى قرطاج، فى مايو ٢٥١م وقت المجمع المنعقد هناك، ومن رسالتيه رقم ٥٤و ٤، نعلم أنه أرسله إلى المعترفين الرومان الذين كانوا لا يزالون يتبعون نوفاتيان ويقاومون كورنيليوس أسقف روما، وقد تمت المصالحة بينهم وبينه (أى كورنيليوس) قبل نهاية عام ٢٥١م.

ونقدم فى الفصل التالى ترجمة كاملة لهذا العمل الثمين.

٥) الصلاة الربانية *The Lord's Prayer*

أغلب الظن أن كبريانوس كتب هذا العمل بعد كتابه «وحدة الكنيسة» بزمن قليل، وبالتالى يمكن أن يكون تاريخ كتابته هو نحو نهاية عام ٢٥١م أو بدايات عام ٢٥٢م. وقد استخدم كبريانوس كتاب العلامة ترتليان عن الصلاة الربانية ولكن بقدر محدود إذ أن شرح كبريانوس أعمق وأشمل.

ونقدم فى الفصل التالى عرضاً شاملاً بهذا الكتاب.

٦) إلى ديمتريانوس *To Demetrianus*

هذا الكتاب عبارة عن رد على شخص ما يُدعى ديمتريانوس إتهم المسيحيين بأنهم المسؤولون عن المصائب التى حلت مؤخراً من حرب ومجاعة وجفاف، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تعزى فيها المصائب إلى المسيحيين بسبب عدم وفائهم لآلهة روما القديمة، وقد واجه ترتليان هذه الإفتراءات وتصدى لها، ولم يكن كبريانوس أخر من دافع عن المسيحيين ضد هذه الإشاعات، فقد تناول أغسطينوس هذا الموضوع أيضاً وأجاب عليه بإستفاضة فى كتابه «مدينة الله»، وذلك بعد أن تناول كاتبان أفريقيان آخران نفس الموضوع وهما أرنوبيوس ولاكتانتيوس.

و«إلى ديمتريانوس» هو واحد من أهم كتابات كبريانوس، ونغمته الدفاعية ومحتوياته تتشابه كثيراً مع دفاع ترتليان وكتابه «إلى سكابيولا».

وقد اعترض العلامة لاكتانتيوس على الإستشهاد الكثير بأدلة من الكتاب المقدس، والتى لن يكون لها أى تأثير على ديمتريانوس، ورأى أن تفنيد

ودحض هذه الاتهامات كان ينبغى أن ينبنى على العقل والبراهين العقلية، وهذا النقد يفترض أن كبريانوس كان واضعاً فى ذهنه أن يخرس ويسكت خصمه، إلا أن هدفاً أعمق كان نصب عينيه، إذ كان يبغى أن يعضد المسيحيين الذين كانوا فى خطر فقدان إيمانهم بسبب هذه الاتهامات الوثنية. وما زال تاريخ كتابة هذا العمل غير معروف.

٧) الموت *On The Mortality*

ما إن إنتهى إضطهاد ديسيوس، والذى قُتل فيه كثيرون، حتى حل وباء مرعب نشر الفزع والموت فى عام ٢٥٢م، ولكى يشرح كبريانوس معنى الموت بالنسبة للمؤمنين، كتب كتابه «الموت» فى ذلك الوقت.

ونقدم فى الصفحات التالية عرضاً كاملاً لهذا العمل.

٨) الأعمال والصدقات *Concerning Works and Alms*

فى نفس تاريخ كتابه «الموت»، وضع كبريانوس عمله « الأعمال والصدقات» والذى يحث على العطاء الحر، فالوباء المدمر ترك الكثيرين فقراء مجردين من كل شئ، وهنا وجدت المحبة المسيحية فرصة رائعة لمساعدة المحتاج والمريض والمحتضر.

وكان لهذا الكتاب مكان متميز دوماً فى التراث المسيحى، وتسرد أعمال مجمع أفسس المسكونى عام ٤٣١م العديد من صفحاته. ونقدم فى الفصل التالى عرضاً كاملاً لهذا العمل.

٩) فائدة الصبر *The Advantage of Patience*

بنى القديس كبريانوس كتابه عن فائدة الصبر على عمل ترتليان عن الصبر، وتُظهر المقارنة بين العملين أن إعتماد كبريانوس الأدبى فيه على عمل ترتليان هو أكثر من إعتماده على أى عمل آخر من أعمال ترتليان، ويتضح ذلك بالأخص فى الإطار العام وإختيار التشبيهات، إلا أن الفرق بين الكاتبين فى الروح واللغة يظل واضحاً تماماً كما هو الحال مثلاً فى وصف أيوب.

وتوضح المقدمة أن الكتاب كان عبارة عن عظة، وفى رسالة كبريانوس إلى چوبيانوس *Jubianus*، وهو فى الغالب كان أسقفاً لموريتانيا، يذكر أنه قد كتبه نحو عام ٢٥٦م.

ونقدم فى الصفحات التالية عرضاً كاملاً لهذا العمل.

١٠) الغيرة والحسد *Jealousy and Envy*

يُعتبر هذا الكتاب ملحقاً بكتاب «عن فائدة الصبر»، ويُعتقد أنه قد كُتب فى النصف الثانى من عام ٢٥١م أو عام ٢٥٢م.

١١) حث على الاستشهاد مُرسل إلى فورتوناتوس
Exhortation to Martyrdom, addressed to Fortunatus

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من النصوص الكتابية، وقد وضعه كبريانوس استجابة لطلب شخص يُدعى فورتوناتوس، ليقوى ويعضد المسيحيين أمام الإضطهاد القادم، والنصوص مرتبة فيه تحت ١٢ عنواناً، وهكذا يقدم كبريانوس مادة مجردة وليس شرحاً كاملاً.

ويشير هذا الكتاب إلى أحد الإضطهادات، وقد تباينت آراء العلماء حول الإمبراطور المقصود هنا، وعما إذا كان اضطهاد داسيان أم ڤاليريان، ويُعتقد أنه قد كُتب نحو عام ٢٥٣م.

١٢) إلى كويرينوس: كتب العهود الثلاثة
To Quirinus: The Books of Testimonies

رغم أن كتابه «إلى فورتوناتوس» له قيمة عظيمة فى تاريخ أقدم النسخ اللاتينية للكتاب المقدس، إلا أنه ليس هناك كتاب من كتابات كبريانوس له أهمية فى هذا الصدد مثل كتابه «إلى كويرينوس» والذى يتكون من العديد جداً من الآيات الكتابية المُجمعة معاً تحت مجموعة من العناوين.

وقد قسمه كبريانوس فى البداية إلى كتابين ثم أضاف إليه كتاباً ثالثاً.

الكتاب الأول هو دفاع ضد اليهود، أما الكتاب الثانى فيتناول موضوع الخريستولوچى، وترتيبه شبيه بذاك الذى فى كتاب «إلى فورتوناتوس»،

ويتضمن الكتاب الأول ٢٤ عنواناً جانبياً، بينما يتضمن الثانى ٣٠ عنواناً جانبياً.

أما الكتاب الثالث فله مقدمته الخاصة به، والتى توضح أن كبريانوس قد وضعه بناءً على طلب ثان من كويرينوس، وهو ملخص للأخلاقيات المسيحية ومرشد للفضائل ويتكون من ١٢٠ موضوعاً يتبع كل منها الأدلة والبراهين من الكتاب المقدس.

ولأن المقدمة لا تشير إلى الكتابين الأول والثانى، لذلك لا نستطيع الجزم بما إذا كان كبريانوس قد جمع الكتب الثلاثة معاً أم لا، وأغلب الظن أنه جمع الثلاثة معاً بعد كتابتهم بفترة، ويعتقد الباحثون أن تاريخ هذا العمل لابد أن يكون قبل عام ٢٤٩م.

١٣) عن أن الأصنام ليست آلهة
That The Idols are not Gods

يهدف هذا البحث الصغير فى جزئه الأول (١-٧) إلى إثبات أن الأصنام الوثنية ليست آلهة بل كانوا ملوكاً سابقين، وبسبب ذكراهم الملوكية، بدأت عبادتهم بعد موتهم، ولكى تُحفظ ملامح هؤلاء الذين رحلوا، نُحتت التماثيل لهم، وذبح الناس الذبائح والضحايا واحتفلوا بأعيادهم كرامة لهم، كما يمكن إثبات ذلك من التاريخ، وليس هناك أى داع للربط بين هذه الممارسات الدينية وبين القحط الذى حل بروما.

أما الجزء الثانى (٨-٩) فيظهر أن هناك إله واحد فقط، غير منظور

وغير مدرك، ثم يقدم فى الجزء الثالث فكراً خريستولوجياً مبسطاً.

ب) الرسائل

تمثل رسائل القديس كبريانوس مصدراً غنياً لمعرفة تاريخ هذه الحقبة من حياة الكنيسة، فهى تعكس مشكلات وجدالات الإدارة الكنيسة فى نحو منتصف القرن الثالث.

ويرجع تاريخ تجميع هذه الرسائل إلى زمن بعيد، وقد بدأ فعلاً عندما رتب كبريانوس بعضاً من رسائله بحسب محتواها وأرسل نسخاً منها إلى مراكز مسيحية مختلفة وإلى الأساقفة زملائه، كما جمعت مجموعات أخرى من الرسائل من ٨١ رسالة، ٦٥ منها بقلم كبريانوس، و ١٦ مرسلة إليه أو إلى إكليروس قرطاج.

والرسائل من ٥:٤٣ كُتبت عندما كان كبريانوس فى مخبئه فى فترة اضطهاد ديسيوس ومنها ٢٧ رسالة إلى إكليروس قرطاج وشعبه.

ومراسلاته مع البابا كورنيليوس وليسيوس *Lucius* تتمثل فى الرسائل من ٤٤ :٦١،٦٤ ، ٦٦، ومنها رسالة (٤٤–٥٥) عن إنشقاق نوفاتيان.

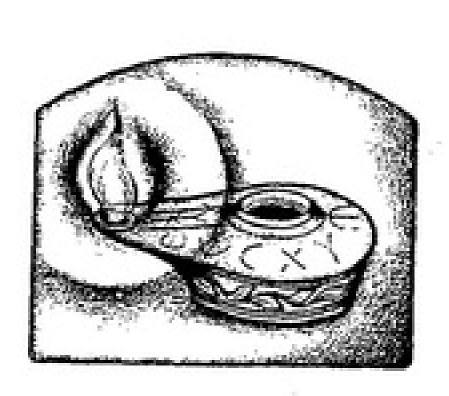
والرسائل من ٦٧ :٧٥ كتبها أثناء أسقفية استفانوس (٢٥٤–٢٥٧م) وهى تتناول الجدال حول المعمودية، والرسائل ٧٨ :٨١ أرسلها من منفاه الأخير.

أما باقى الرسائل١ :٤، ٦٢، ٦٣، ٦٥، فقد كتبها كبريانوس بنفسه

لكن لا نستطيع أن نصنفها تاريخياً لأنها لا تتضمن أى إشارة إلى تاريخ كتابتها.

والرسالة ٦٣ تُعتبر كتاباً وتُسمى أحياناً «سر كأس الرب» وتتحدث عن سر الإفخارستيا كما يتضح من إسمها.

لكن هذه المجموعة غير مكتملة، لأن هناك إشارات لرسائل أخرى فُقدت، والمخطوطة الوحيدة التى تحتوى هذه الرسائل الـ ٨١ لا تعتبر فقط مصدراً هاماً فى تاريخ الكنيسة والقانون الكنسى، بل وأيضاً أثراً متميزاً فى اللاتينية المسيحية.



ملامح فكر القديس كبريانوس

الكنيسة

تميز القديس كبريانوس بإهتمامه بإدارة كنيسته من خلال تعليمه عن طبيعة الكنيسة ودورها من واقع خبرته الرعوية الأسقفية، وهو يرى فى قصة سوسنة رمزاً للكنيسة المتحررة من الخطية، ورمزاً للكنيسة النقية، سواء النقاوة العقائدية أو السلوكية.

وهو صاحب القول الشهير «**لا يستطيع أحد أن يأخذ الله أباً له ما لم يأخذ الكنيسة أماً**» لذا نادى القديس كبريانوس دائماً بأمومة الكنيسة كعروس المسيح النقية الطاهرة، معتبراً أن مَنْ يبقى خارج الكنيسة يكون خارج معسكر المسيح، فليس مسيحياً مَنْ هو ليس داخل كنيسة السيد المسيح، إذ كيف يمكن أن يكون أحد مع المسيح إن كان لا يحيا داخل عروس المسيح وإن لم يوجد فى كنيسته.

وطالما كانت ولادة المسيحى تتم فى المعمودية التى لا تحدث إلا فى العروس الوحيد للمسيح التى تستطيع أن تلد روحياً أولاداً الله، فأين يمكن أن يولد من لم يكن أبناً للكنيسة؟!!.

ويرى كبريانوس أن الكنيسة كفلك نوح لا يخلص من يبقى خارجها، فكما لم يخلص من ظل خارج فلك نوح، كذلك فإنه لا خلاص لمَنْ

يبقى خارج الكنيسة (لا خلاص لأحد خارج الكنيسة)، ويبين القديس كبريانوس أن فلك نوح الواحد كان رمزاً للكنيسة الواحدة، فلو كان فى زمان معمودية العالم التى بها تم له التطهير والفداء، قد أمكن لأحد أن يخلص وهو خارج فلك نوح، لكان من الممكن أن يحيا من هو خارج الكنيسة، أما مَنْ يتركها ويخرج خارجاً فدمه على رأسه وهو مسؤول عن هلاك نفسه.

ويؤكد القديس كبريانوس على وحدانية الكنيسة بإيمانها الواحد وجسدها الواحد، معتبراً أن الشقاق والهرطقة من عمل الشيطان، فالكنيسة لا توجد منقسمة ولا منفصلة، بل مرتبطة ومتحدة بواسطة الأساقفة الذين يكوّنون معاً بإتحادهم الواحد مع الآخر جسماً متماسكاً للكنيسة.

وفى أوصاف أخرى، يصف القديس كبريانوس الكنيسة كمجموعة من حبوب القمح التى تتحد معاً لتؤلف خبز الإفخارستيا، ويصفها بالأم التى تضم فى حضنها جميع أولادها وتجمع شعباً كاملاً، ويصفها بأنها بيت الله وبيت المؤمنين حيث أشار إلى «الله مسكن المتوحدين فى بيت» (مز٦٨: ٦).

والقديس كبريانوس هو أول لاهوتى يعالج موضوع «وحدة الكنيسة» كموضوع رئيسى فى تعليمه بإعتبارها «عروس المسيح» و«أم المؤمنين» و«أمنا الكنيسة» وبأنها «واحدة جامعة غير منقسمة» وبالإتحاد معها يمكن للمسيحيين أن ينالوا الحياة الواحدة، ووصاياها تؤدى إلى الطريق المستقيم، وخارج شركة الكنيسة لا شئ سوى الخطية والظلمة، حتى الأسرار والرسامة والأسقفية والإعتراف بالإيمان والإنجيل نفسه لا معنى لهم طالما هم خارج الكنيسة (رسالته رقم ٥).

حفظ القديس كبريانوس تعلميه عن الكنيسة بأنها الجسد الذى يتغذى على الحياة الإلهية السرية الواحدة، الجسد الذى ينبغى أن نتحد به إن أردنا أن نتحد بالمسيح عريس الكنيسة. ويرى كبريانوس الأسقف والشهيد أن الكنيسة جسد عضوى مترابط ذو بنيان منظور ودستور وقانون واضح وبرئاسة كنسية منظمة: الشهداء والمعترفون ثم العذارى والنساك ثم الشمامسة والخدام ثم الإخوة والأخوات، وأولاً الإكليروس بدرجاته المتنوعة، يرأسهم فى كل إيبارشية «الأب الأسقف» (رسالته رقم ٢٦)

طبيعة خدمة الأسقفية

إتفاقاً مع تقليد باقى آباء الكنيسة الجامعة، يوضح القديس كبريانوس أن تكميل تحقيق الكنيسة كجسد المسيح السرى يتم من خلال خدمة الأسقفية، وتلك الوحدة السرية غير المنظورة لها وجه منظور خارجى، يكمن فى إتحاد الشعب مع راعيه. والقديس كبريانوس من أشهر المدافعين عن مركز الأسقفية داخل الكنيسة، موضحاً أن السلطان الأسقفى يختلف تماماً عن أى سلطان بشرى بحت.

وكان تعليمه عن طبيعة خدمة الأسقفية مؤسساً على كلمات الوحى الإلهى نفسه وعلى التدبير الإلهى لخلاص العالم، فهو يعتبر الأسقفية «موهبة» والأسقف لابد أن يكون متوشحاً بالروح، وكل إيبارشية يصبح لها ملاكاً وكارزاً وراعياً متمثلاً فى شخص أسقفها، وكل أسقف يشغل مكان القديس بطرس الرسول داخل كنيسته، وله نفس السلطان المُعطى للرسل الإثنى عشر، يتوارثه الأساقفة جيلاً من بعد جيل «ارع خرافى. ارع غنمى .

ارع غنمى» (يو٢١-١٥).

وفى رسالته رقم (٢٦) يرى أن الأسقفية هى إدارة الكنيسة التى تعبر عن وحدتها فهى تمثل الكنيسة، وتوجد من أجل الكنيسة، وهى تصير ذات معنى فقط فى مضمون وجود الجماعة الحية للكنيسة خلال الأسرار والرعاية والشركة والشهادة.

والقديس كبريانوس ـ مثله فى هذا مثل آباء الكنيسة الأولى ـ لا يصيغ أفكاره عن هذا الموضوع فى تعبيرات مجردة أو كإمتيازات قائمة بذاتها تُصبغ على مقتنى درجة الكهنوت بسبب منصبه أو بإعتباره هذا، ولكن كل شئ يختص بهذه الدرجة الكهنوتية مرتبط إرتباطاً مباشراً بقداسة الحياة الكنسية وبالوفاء بكل إحتياجات أعضائها الروحية.

وفى وسط الكنيسة وجد القديس كبريانوس راحته، بإعتبار أن الكنيسة هى المجال الروحى الذى من أجله يعيش الأسقف ويعمل ويجاهد ويرعى ويسهر، وهى بدورها تسنده وتحوطه بتعاليمها وصلوات أعضائها.

كذلك يربط القديس كبريانوس بين الأسقف والرعية (أعضاء جسد المسيح السرى) تماماً، فيقول فى رسالته رقم (٦٨) : «الكنيسة بالأسقف والأسقف بالكنيسة»، لذا إنصب إهتمامه فى أن يرى وظيفة الأسقف فى وحدة جذرية مع الكنيسة، ومع شعب الله المؤمن، فيقول فى رسالته رقم (٨٢) «الأسقف حينما يعترف بالإيمان، إنما ينطق بفم الشعب، بإلهام الله».

لم يجعل القديس كبريانوس خدمة الأسقفية أعلى من الكنيسة، لذلك

أصر على الإنتخاب الشعبى للأسقف، فمن حق الشعب أن يختار راعيه، ومن حقه أن يرفضه إذا إعتنق الهرطقة أو كان غير مستحق.

بينما يصف الرعية بأنهم «الشعب المسيحى» و«الجنس الإلهى» الذى نال الميلاد الثانى بالمعمودية التى بها يصير الكل أولاداً لله وإخوة، ويبقون هكذا حتى النياح. كذلك يؤكد القديس كبريانوس على أن السلطان المُعطى للراعى ليس كسلطان البشر، لذا مشيئة الله هى أن يختار الأسقف والكاهن فى حضرة الشعب كله، كما علم الله موسى أن يقيم هارون وأليعازر أمام المجمع كله (رسالته رقم ٦٧) أى تحت بصر الجميع، ولا تتم رسامة الكهنة إلا بعلم الشعب وموافقته، حتى تُتاح للذين يعرفون المرشحين شخصياً أن يعلنوا فضائل أو أخطاء كل منهم. أما الكهنة الذين إرتدوا (رسالة ٦٣) فيجب أن يجردوا من كهنوتهم، لأن الكهنة فى العهد القديم كان يجب أن يكونوا بلا لوم.

والقديس كبريانوس ـ بعكس العلامة ترتليان (الذى إنحرف فى البدعة المونتانية) ـ كان يؤمن بوجود رتبة الكهنوت المُعطاة للكهنة، لكن هذا لم يمنعه أبداً من أن يُشرك الشعب معه فى كل قراراته العظمى، وكان يصف الكنيسة بأنها تتكون من الأسقف والإكليروس والمؤمنين (رسالته ١٠) الذين هم ثابتين فى الإيمان.

ويعتبر كبريانوس أن المسيح ربنا قد أسس الكنيسة وأقامها على الأساقفة خلفاء الرسل وجعلهم رؤوساً لها، وهو يصلى دائماً من أجل حيوية الكنيسة ليكون أعضاؤها من الأحياء، فتكون الكنيسة عندهم وفيهم لأن الله ليس

إله أموات بل إله أحياء (مت٢٢ :٣٢) (رسالته رقم ٣٣).

ورأى كبريانوس منذ بداية أسقفيته ألا يقرر شيئاً بدون مشاورة الإكليروس وأعضاء الكنيسة لتكون أمور رعايته برضى الشعب، لذا كان يجتمع بهم ويفحص معهم ما يتخذ من تدابير (رسالته ١٤)، وهكذا نرى أن كبريانوس لا يتناول «المنصب الأسقفى» فى ذاته بمعزل عن الكنيسة بل فى إطار مفهومها وطبيعتها وعملها الإلهى والسرائرى والرعوى.

لذلك يسعى القديس كبريانوس لأن يرى كل صفات الإنسان الروحى مجتمعة فى شخصية «الأب الأسقف» فيقول فى رسالتيه (رقم ٣ و رقم ٣٢): «الأسقف يجب أن يكون النموذج الحى لأعضاء كنيسته» فى الفضيلة والثبات فى الإيمان والسيرة الشخصية والقدوة، متقدماً على الجميع، ومن تتوفر فيه كل هذه المتطلبات الروحية يكون هو وحده المستحق أن يدخل ضمن عضوية مجمع الأساقفة المقدس.

ويحزن القديس كبريانوس من أجل كل إخفاق يأتى من جانب الأسقف فى النهوض بأعباء وظيفته، إذا كان يشغل وظيفته من أجل المنفعة الذاتية أو ينغمس فى الأعمال العالمية، أو يتراجع عن إيمانه أثناء الإضطهاد (رسالتيه رقم ٦١، ٦٥).

كذلك يرى القديس كبريانوس أن السلطان الأسقفى ـ بسبب الضعف البشرى ـ ليس مطلقاً، بل هناك عوامل عديدة تضبط هذا السلطان:

١) أن يكون الأسقف على إتصال بشركائه الأساقفة ومرتبطاً معهم، معتبراً أن الآباء الأساقفة رفقاءه وشركاءه فى الخدمة، وأن القسوس والشمامسة إخوته المحبوبين (رسائله ٣٥،٤٤،٦٥).

٢) ألا يتصرف إلا على مستوى وصايا الله، فى إتفاق مع تقليد الكنيسة المقدس وعلى خطى المبادئ التى إتبعها سلفاؤه الآباء الأولين من أقوال وتعاليم وقوانين. لذا كان الرجوع إلى أقوال وأعمال الآباء السابقين سمة طبيعية فى قرارات القديس كبريانوس فيما يختص بتدبير الكنيسة (رسائله ٩٥، ٩، ٥١، ٦٦).

٣) أن يتمسك بالقانون الكنسى وبروح الشركة المجمعية (رسالتيه ٥ ، ١٤) كضمير الكنيسة الحى على مدى الأجيال وكتقليد يحفظها.

٤) ألا يستحدث قوانين كنسية جديدة إعتباطاً، وألا يسمح بالمخالفات تحت إدعاء أنها سبق وأرتكبت فى الماضى، فليس معنى أن خطأ ما قد حدث قبلاً أن يسمح بتكراره دائماً، أى أن لا يصير الخطأ المتكرر قانوناً (رسالته ٧٢).

ويؤكد القديس كبريانوس على أن الوظيفة المميزة للأسقفية حقاً تكمن فى خدمة الأسرار، فتلك هى الأعمال ذات الأهمية القصوى فى تقديس حياة المؤمنين بإعتبار أنه لا خلاص لأحد خارج الكنيسة، فداخل الكنيسة الطريق مفتوح للجميع لنوال الأسرار المؤدية للخلاص، وجماعة المؤمنين بأكملهم بلا أى تفريق يشاركون فى العبادة الليتورجية، والأسقف بالرغم من أنه «الرئيس» المكرم وسط الجماعة، إلا أنه بالأكثر معتبر «خادم» الأسرار

ووكيل سرائر الله، لذا بخدمته الأسقفية يكون أداة الوحدة فى كنيسة الله وأداة التعبير الدائم عن الوحدة السرية الكائنة فى جسد المسيح السرى «الكنيسة».

شرح القديس كبريانوس أن هروبه وقت محنة الإضطهاد الأولى لم يكن تخلياً عن رعيته، ونشر بياناً عن أعماله مما يدل على حزمه وعلى صلابته الأسقفية، فهو حبر مسؤول عن إكليروسه وعمله الرعوى والإدارى والتدبيرى بكل غيرة، لذا بقى دائماً ساهراً على إخوته حاضراً بينهم بروحه وتشجيعه ونصيحته (رسالة ٢٠) وكأنه محبوساً بينهم، معهم بالقلب يشعر بهم بينما هو فى مخبئه.

تعود كبريانوس على مشاورة الشعب قبل السيامات وعلى أن يفحص معهم الشهادات البشرية والإختيار الإلهى، فمنذ بداية أسقفيته لم يكن يقرر شيئاً بدون مشاورة ورضى الشعب، ومتى إجتمع بهم كان بنعمة الله يفحص معهم كما يقتضى ما إتخذه وما يتخذه من التدابير.

الكتاب المقدس والتقليد

إن القديس كبريانوس وهو يعترف بولائه للتقليد، يعترف ضمناً وصراحة أيضاً بالولاء المطلق لحق المسيح غير المتغير الذى عاشت به الكنيسة دائماً، وكان القديس كبريانوس لاهوتياً يعتمد على الكتاب المقدس وهو يحس فى نفسه أنه أولاً محكوم بالكتابالمقدس الذى له سلطان مطلق على كل أحد، وعلى الأخص على من يشغلون أية رتبة فى الكنيسة، فالكتاب المقدس

يُوضع كحكم بين الآراء المتعارضة (رسالته رقم ٥١).

وينظر كبريانوس إلى الأسقف على أنه معلم أولاً، وهذا أمر يأخذه مأخذ الجد، فوظيفة «التعليم» ليست إمتيازاً، لكنها واجب ومسؤولية جديران بالإعتبار، ففهم حق الإنجيل وأساسيات العقيدة، وفوق الكل واجبات السلوك المسيحى، هى أساسيات لا غنى عنها، فالأسقف لابد أن يحفظ الحق التقليدى للكنيسة، والأمر فى هذا لا يحتاج إلى مهارة شخصية أو مواهب فائقة، بل إلى دراسة وإجتهاد شخصى دائم.

ويؤكد القديس كبريانوس على أن تعاليم الإنجيل هى التعليم الآتى من الله، وهى الأساس الذى يبنى عليه رجاؤنا، وهى الجدار الذى يستند إليه إيماننا، تغذى قلوبنا وتسير بنا فى طريق الخلاص إلى النهاية، حتى تبلغ بنا إلى ملكوت السموات.

الروح القدس

مثل الأباء الأساقفة أغناطيوس وإيريناؤس أسقف ليون، هكذا كان أيضاً كبريانوس أسقف قرطاجنة مهتماً بالوحدة الكنسية المؤسسة على الروح القدس، لذا يقول «لقد كان الروح القدس ينظر إلى الكنيسة الواحدة لما قال فى النشيد: واحدة هى حمامتى كاملتى الوحيدة لأمها هى (نش٦ :٩).. فإن المؤمنين ليس لهم سوى بيت واحد وكنيسة واحدة، ولقد كان الروح القدس ينظر إلى هذا البيت الواحد وإلى التوافق الكائن فيه، أى فى بيت الله فى كنيسة المسيح، حيث تسكن النفوس البسيطة المتحدة والمتوافقة معاً،

ولهذا السبب يُظهر الروح القدس نفسه فى هيأة حمامة، لأن الحمامة طائر بسيط ومبهج وليس فيه عنف أو عداء، بل يألف مساكن الناس ويسر بالبيت الواحد، هكذا نحن أيضاً فى الكنيسة لتكن لنا هذه البساطة وهذه المحبة التى تجعلنا مثل الحمامة».

فالروح القدس يستعلن فى هيئة حمامة لأن الحمامة هى رمز السلام، ويعتبر كبريانوس أن أفضل ذبيحة لدى الله هى سلامنا وتوافقنا الأخوى، وظهور وحدة الآب والابن والروح القدس فى تآلف الشعب المسيحى.

ويركز كبريانوس على علاقة الروح القدس بالكنيسة كجسد وكأفراد فى الجسد، أما ما يتبع هذا من نمو فى النعمة أو فقدان لها فهذا يرجع، فى عقيدة كبريانوس، إلى السلوك والتجاوب، لذا يقول عن الروح القدس أنه يُفاض بقدر ما يقبل.

ويعتبر أن الكاهن هو خادم الأسرار الذى يتممها بالروح القدس، وأن الكنيسة وحدها لها هذه القوة وتملك ينابيع المياه الحية، ويتبع كبريانوس خط العلامة ترتليان فى تأكيده على أن وضع الأيادى بعد المعمودية يكمل بالضرورة طقس المعمودية لإعطاء الروح القدس، كذلك يعتبر الروح القدس مصدر الإلهام للأنبياء والرسل جميعاً.

سر المعمودية

يؤكد القديس كبريانوس علي أن الروح القدس هو الفاعل فى تقديس الأسرار، فمن خلال غسل الماء يولد الموعوظ ميلاداً ثانياً إلى جدة الحياة

كنتيجة لحلول الروح القدس فى الماء، وحينئذ يتهيأ للإشتراك فى كأس الرب، بعد نواله نعمة الروح القدس فى المعمودية، ليوضح أن الماء حقيقى وليس مجرد رمز، وأن المعمودية إنما هى بالماء والروح.

ويعتبر كبريانوس مثل سابقيه من الآباء أن الإنسان العتيق يموت فى المعمودية ويولد الإنسان الفاخر الجديد الذى يخلص بغسل التجديد بحسب الرحمة الإلهية، خلال حميم المياه الشافية الواهبة جدة الخلاص بالميلاد الثانى بطريقة معجزية، وهو فى هذا يؤكد على سرائرية المعمودية وفاعليتها وعلى أنها إنضمام لعضوية الكنيسة.

ركز القديس كبريانوس كرجل كنسى من الطراز الأول على أن الأسرار المقدسة هى سلاح التكريس والإيمان واضعاً فى ذهنه السر *Sacrament* والسلوك بحسب المعمودية فيقول: «ليتنا نحن الذين فى المعمودية متنا ودُفنا عن الخطايا الجسدية التى للإنسان القديم وقمنا مع المسيح فى التجديد السمائى نفكر ونعيش فيما للمسيح ونمارس تجديدنا هذا».

ثم يشرح كبريانوس قانونية الممارسة الطقسية للسر فيقول: «يلزم أولاً أن تتطهر المياه وتتقدس بواسطة الكاهن لتحل فيها قوة التقديس للمعمودية لغسل خطايا الإنسان الذى ينال المعمودية، إذ يقول الرب لحزقيال: وأرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من كل أصنامكم... وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم» (حز٣٦: ٢٥)». وكذلك يتحدث كبريانوس عن خادم السر (الكاهن) فيقول «كما أن الرسولين بطرس ويوحنا بعد صلاة واحدة إستدعوا الروح القدس ووضعوا الأيدى على سكان

السامرة (أع ٨: ١٤) هكذا فى الكنيسة أيضاً منذ ذلك الحين ينال جميع المعمدين الروح القدس ويختمون بختمه عند دعاء الكهنة ووضع أياديهم... فالكنيسة هى الوسيط فى منح الروح القدس للمعمدين».

ويتحدث القدس كبريانوس عن الكاهن خادم السر وعن سر المعمودية كعمل كهنوتى، وعن المعمودية كختم وميلاد ثان جديد وعن مسحة التثبيت (الميرون) وعن تغطيس المعمد ثلاثة مرات على اسم الثالوث القدوس فيقول«والذين يعتمدون فى الكنيسة يتقدمون إلى مدبرى الكنيسة وبصلوات ووضع أيدى الكهنة يتقبلون الروح القدس وختم الرب، إذ ينبغى على من يعتمد أن يُمسح أيضاً بالمسحة ليكون ممسوحاً لله ويأخذ نعمة المسيح».

وعن لزومية معمودية الأطفال يقول: «لا يجوز أن نمنع أحداً من المعمودية ونعمة الله الذى هو صالح ورؤوف بالجميع، فالمعمودية هى للجميع، خصوصاً للأطفال الصغار الذين بنوع خصوصى يستميلون إنتباهنا وصلاح الله».

وفى تعليمه السرائرى يوضح طقس جحد الشيطان فيقول «إننا نجحد الشيطان وهيئة هذا العالم كله، وجحد الشيطان مؤكد بالتقليد» وكذا يقول «الرب ذاته أوصى بأن نعتمد باسم الثالوث القدوس (أى الآب والابن والروح القدس)» مؤكداً على إستدعاء الثالوث وضرورته لكمال شرعية السر الكنسى.

ثم ينتقل بنا القديس كبريانوس إلى معمودية الدم فيقول: «لقد أخذنا بتدبير من الله المعمودية الأولى، فليكن كل واحد منا مستعداً للمعمودية

الثانية أيضاً، متيقناً أن نعمتها وقوتها وكرامتها أعمق وأثمن من الأولى، إنها تلك التى يُعمد بها الملائكة الشهداء، معمودية الدم التى بها يتمجد الله ومسيحه، المعمودية التى بها ننسلخ من العالم وفى الحال نتحد بالله، ففى معمودية الماء ننال غفران الخطايا، أما فى معمودية الدم فننال إكليل كل الفضائل».

ويركز القديس كبريانوس على أننا ننال التطهير والفداء والخلاص داخل الكنيسة فيقول: «فى فلك نوح خلص قليلون ـ أى ثمانى أنفس فقط ـ بالماء، الذى على مثاله يخلصكم أنتم أيضاً بالمعمودية» فلو كان فى زمان معمودية العالم التى بها تم له التطهير والفداء قد أمكن لأحد أن يخلص وهو خارج فلك نوح، لكان من الممكن أن يحيا بدون معمودية منْ هو خارج الكنيسة.

ويتحدث القديس كبريانوس أيضاً عن الأسرار بإعتبارها تتم بتوسط عاملين متحدين معاً: العنصر الأول وهو منظور (الماء ـ الخبز ـ الخمر ـ الزيت...) والعنصر الثانى غير المنظور (أى الروح القدس) ... بإعتبار أن الروح القدس هو مانح العطايا، كما يؤكد على إرتباط سرى المعمودية والمسحة المقدسة (الميرون) فى الممارسة معاً، إذ لا يمكن فى الطقس الكنسى الفصل بين هذين السرين.

سر الإفخارستيا

أما عن التعليم الإفخارستى، فيعلم القديس كبريانوس بأن المسيح هو

خبزنا وقوتنا نحن الذين نأكل جسده، والذين زلوا فى الهفوات ويتقدمون للشركة بدون توبة إنما يستهينون بجسد الرب ودمه، ويقترفون إثماً بجسارة ضد الرب، ويرى أن الإفخارستيا توحدنا فيقول: «عندما يدعو الرب الخبز المعد من حبات القمح جسده.. وعندما يدعو الخمر المُعد من حبات العنب دمه، فهو بذلك يوحدنا ويأتى بنا إلى الوحدة الكاملة».

ويرى القديس كبريانوس أن جسد المسيح ودمه يحمينا عندما نأخذ الجواهر الإلهية التى هى فعلاً جسد المسيح ودمه، إذ أننا نأكل جسد الرب ونشرب دمه الكريم، وفى تقديم ذبيحة القربان إنما الكاهن يمثل المسيح كاهننا الأعظم ويحقق دور المسيح حين يفعل ما فعله الرب، وحينئذ فقط تكون الذبيحة كاملة وحقيقية فى الكنيسة لله الآب، عندما يتم إصعادها بحسب مثال تقدمة المسيح.

وما دامت تقدمة المسيح هى تقدمة آلامه، فإنه ينبغى أيضاً أن تكونِ آلامه هى غاية وموضوع ذبيحتنا، وبحسب القديس كبريانوس «حينما نصعد القرابين ونقدم ذبيحتنا إنما نفعل ما فعله الرب نفسه، فالكاهن سرائرياً يعيد عمل وتقديم قربان آلام المخلص الذى قدمه لله الآب، والمسيح حينما تألم من أجلنا، ومن ثم قدم ذبيحته، كنا نحن فيه بنفس القدر، كما كان هو حاملاً لخطايانا، ومن ثم ففى جسده ودمه قدم شعبه إلى الله الآب، وفى الإفخارستيا يتحد المسيح بشعبه».

ويؤكد القديس كبريانوس على أن السيد المسيح هو الكاهن وهو الذبيحة بآن واحد، فهو رئيس كهنة الخيرات العتيدة، وهو الذى قدم نفسه ذبيحة

للآب وأوصى أن يُصنع هذا لذكره.

ويرى كبريانوس فى بركة يعقوب ليهوذا (تك ٤٩: ١١) بغسل ثيابه بالخمر إشارة للتطهير بدم المسيح الإفخارستى، وعن سر الإفخارستيا العجيب وضرورته للخلاص يقول «ما قد سبق فعمل كإشارة أو رمز للحمل المذبوح تحقق فى المسيح، الذى هو الحقيقة التى يشير إليها الرمز. وكما حدث حينذاك عندما ضُربت مصر أن شعب اليهود لم يتمكنوا من الهرب إلا بالدم وعلامة الحمل، هكذا أيضاً عندما يُضرب العالم بالخراب، كل من يجد فى دم المسيح علامة خلاصه سيهرب من الهلاك».

الذبيحة

يعد كبريانوس الوجه الكنسى الأصيل لكنيسة شمال أفريقيا، ولأنه كان أسقفاً وشهيداً لذا تمتع بحس الراعى وأصالة الحياة المسيحية، معتبراً أن ذبيحة القداس هى كمال الكنيسة ودعامة وحدتها الروحية، فيقول أن حبوب القمح المتعددة هى جسد الرب وعناقيد العنب هى دمه التى تجعلنا قطيعاً واحداً متحداً، والخبز الواحد الذى هو الجسد الواحد يعكس وحدة الكنيسة الداخلية، والكأس أيضاً لواحد، ولكن كبريانوس يفسر مزج الخمر بالماء فى القداس بإتحاد الكنيسة بالمسيح، وهو إشارة للوحدة الروحية القائمة بين المسيح والكنيسة.

ويرى كبريانوس أن المسيح ربنا وإلهنا هو مؤسس ومعلم هذه الذبيحة، معتبراً أن تقديس كأس الرب هو تقليد الرب الذى فعله من أجلنا، لأن

الكأس الذى يُقدم لنتذكر الرب يجب أن يُقدم ممزوجاً أى خمراً وماءً، لأن المسيح قال «أنا هو الكرمة الحقيقية» (يو١٥: ١٠) ولذلك فإن دم المسيح بكل يقين ليس ماء بل خمر ولا يظهر فى الكأس دمه الذى به خلصنا والذى به نحيا، إذا لم يكن فى الكأس خمر، لأن الخمر هو الذى يظهر لنا دم المسيح، وهذا ما يعلنه لنا الرب وتشهد به الأسفار المقدسة.

وملكى صادق أعطى رمزاً لسر ذبيحة الرب عندما أخرج خبزا وخمراً (تك ١٤: ١٨) وهو كاهن الله العلى وبارك إبراهيم، وملكى صادق كان مثالاً للمسيح لأن الروح القدس يقول فى المزامير على لسان الآب للابن «قبل كوكب الصبح ولدتك. أنت هو الكاهن إلى الأبد على طقس ملكى صادق» (مز١١٠: ٤). وهذا الطقس بالتأكيد هو الذى قامت عليه الذبيحة، ومن هو كاهن الله العلى إلا ربنا يسوع المسيح الذى قدم ذبيحة لله الآب وقدم بنفسه ما قدمه ملكى صادق، الخبز والخمر أى جسده.

والروح القدس يتحدث بواسطة سليمان عن مثال ذبيحة الرب حيث يذكر ذبيحة القربان أى الخبز والخمر، والمذبح والرسل «الحكمة بنت بيتها وشيدته على أعمدتها السبعة، ذبحت الذبائح ومزجت خمرها فى الكأس وهيأت مائدتها وأرسلت خدامها تدعو الجميع بصوت عال إلى كأسها قائلة من هو ساذج فليتقرب إلىّ ولكل ناقص الفهم تقول تعالوا كلوا من خبزى وإشربوا من خمرى الذى مزجته لكم» (أم٩: ١) ويعلن الروح القدس بصوت النبوة أن الخمر الذى مزج بالماء هو كأس الرب، وهذا يؤكد لنا أن ما تم فى آلام الرب قد سبق وأخبر عنه الروح القدس.

ويشير كبريانوس إلى بركة يعقوب ليهوذا وغسل لباسه بالخمر وثوبه بدم العنب (تك ٤٩: ١١) فدم العنب هو خمر كأس دم ربنا، مشيراً إلى إشارة أشعياء عن آلام الرب وثيابه الحمراء كدائس المعصرة (أش٦٣: ٢) بإعتبارها إشارة إلى دم الرب الذى أُظهر فى كأسه حسبما سبق الأنبياء وأخبروا عنها، تلك الكأس التى شربها الرب أولاً ثم أعطاها للمؤمنين ليشربوا منها.

فدم المسيح هو الذى يُعلن ويُظهر فى الكأس، دم يسوع المسيح نفسه حسب عهده معنا، ولذلك يجب أن يكون الكأس مملوءً بالخمر الممزوج، ذلك الخمر الذى يعلن ويظهر دم الرب لأنه ذلك الدم المسفوك عنا يكون حاضراً دائماً طالما أن شخص يسوع نفسه حاضر على الدوام.

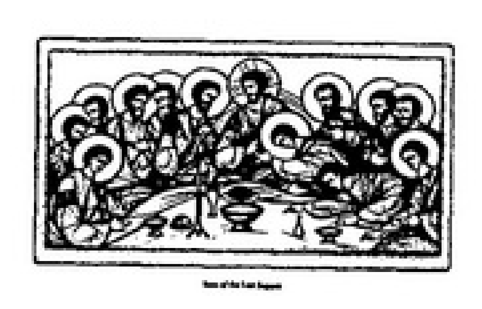
وذلك الحضور غير المنظور هو حضور يقتضى وجود الكأس كعلامة ظاهرة للحقيقة الأبدية التى تُعلن فى الزمان، لتقودنا إلى الحكمة الروحية وتحرر نفوسنا وتنزع عنها الغم وتهب راحة لنفوسنا وتقدم لنا فرحة الصلاح الإلهى وتنسينا الفكر الزمنى وكآبة القلب التى تسببها أحمال الخطية.

ويتحدث القديس كبريانوس عن الخمر والدم والخبز والجسد مستخدماً تعبير «ذبائح الرب» أى بصيغة الجمع وهو يعنى القداسات نفسها «ذبائح الرب نفسها التى تعلن أن إتفاق المسيحيين نابع من الذبيحة» (رسالة ٧٥) وفى رسالته رقم ٦٢ يقول «ونحن نذكر آلامه فى كل الذبائح لأن آلام الرب هى الذبيحة التى نقدمها». ومع وجود صيغة الجمع والمفرد معاً يمكننا أن نتأكد أن كبريانوس يعنى القداسات نفسها، ولعل قيمة إستخدام صيغة الجمع هو التأكيد على الذبيحة نفسها كعمل أساسى.

ويؤكد كبريانوس على أهمية الإفخارستيا وأنها هى سلاح الشهداء، ولذلك يجب أن يأكل منها المؤمنون يومياً، ولعل الإشارة إلى الإحتفال بسر الشكر وردت لأول مرة فى كتابات آباء شمال أفريقيا اللاتين عند كبريانوس.

ولم يغفل القديس كبريانوس دور الكنيسة فى تقديم الأسرار الإلهية، لذا يقول فى رسالته (رقم ٥٤):

«عندما يقترب الإضطهاد مجدداً وتبدو علامات تنذر بذلك، كونوا متسعدين وتسلحوا لأجل الجهاد، لا تتركوا من تشجعونهم فى الجهاد مجردين بلا ذخيرة دفاعية، بل ليصطفوا فرقاً فرقاً تحت شعار جسد يسوع ودمه. إشبعوهم من الزاد السمائى الكائن فى سر الإفخارستيا درعهم وملجأهم ضد الأعداء».





الباب الثانى

من كتابات القديس كبريانوس

١) النص الكامل لكتاب «وحدة الكنيسة»

٢) عرض لكتاب «الصلاة الربانية»

٣) عرض لكتاب «المرتد»

٤) عرض لكتاب «الأعمال والصدقات»

٥) عرض لكتاب «ثياب العذارى»

٦) عرض لكتاب «الموت»

٧) عرض لكتاب «فائدة الصبر»

النص الكامل لكتاب

وحدة الكنيسة

On The Unity Of The Church

ما دام الرب يحذرنا قائلاً: «أنتم ملح الأرض» (مت٥:١٣) وما دام يوصينا أن نكون ودعاء لا نؤذى أحداً وأيضاً أن نكون حكماء بجانب وداعتنا، فماذا إذاً، أيها الإخوة الأحباء، ينفعنا أكثر من أن نكون ذوى بصيرة وإفراز، لنا قلب يقظ، لكى نعرف ونحذر خداعات ومؤمرات العدو المخادع، حتى أننا نحن الذين لبسنا المسيح حكمة الله الآب، لا نكون معوزين الحكمة اللازمة لخلاصنا؟

لأنه ليس الإضطهاد فقط هو الذى يجب أن نخشاه، ولا تلك الأمور التى تهاجم علناً لكى تهزم عبيد الله، فالحذر يكون أسهل عندما يكون الخطر معلناً ظاهراً، والذهن يستعد مسبقاً للقتال متى أظهر العدو نفسه، ولكن العدو يخشى أكثر ويزداد الحذر والحيطة منه عندما يتسلل خلسة، عندما ـ بعد أن يخدع بمظهر وصورة السلام ـ يهاجم بطريقة خفية، لأن له أيضاً اسم الحية، وهذا هو خداعه دوماً، هذه هى حيلته ومؤمراته الخفية المظلمة التى يهزم بها الإنسان، وهكذا منذ بداية العالم خدع، وبعد أن تملق بكلمات كاذبة، أضل النفوس الغير مختبرة بأن استغل بساطتها وتصديقها الغير حذر، وهكذا حاول أن يجرب الرب نفسه، واقترب منه خفية

كما لو كان سيتسلل مرة أخرى ويخدع، ولكن الرب أدرك خداعه ورده، وبذا هزم وغلب لأنه عرف واكتشف.

وقد كان هذا مثالاً لنا كى نترك ونتجنب طريق الإنسان العتيق ونقف فى خطى مسيح غالب، حتى لا نسقط كرة أخرى بغير حذر فى شباك الموت بل، عندما نعرف وندرك الخطر، نقتنى الأبدية التى أخذناها فعلاً، ولكن كيف لنا أن نقتنى الأبدية إن لم نحفظ وصايا المسيح التى بها يطرد الموت ويهزم؟ فهو يحذرنا بنفسه ويقول «إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا» (مت١٩:١٧) وأيضاً «إن فعلتم ما أوصيتكم به لا أعود اسميكم عبيداً بل أحباء» (يو١٥:١٥) وأخيراً يدعو هؤلاء (الذين يحفظون وصاياه) أقوياء وثابتين، ويعلن أنهم مؤسسون فى أمان تام على الصخرة، مبنيين بثبات لا يتزعزع ولا يهتز فى مواجهة كل عواصف وأعاصير العالم، ويقول: «كل من يسمع أقوالى ويعمل بها أشبه برجل عاقل بنى بيته على الصخر فنزل المطر وجاءت الأمطار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر» (مت٧:٢٤) لذا يجب علينا أن نثبت فى كلماته، وأن نتعلم ونعمل كل ما علمه وعمله، ولكن أنى لإنسان أن يقول أنه يؤمن بالمسيح بينما هو لا يحيا فى المسيح؟ أو كيف ينال جعالة الإيمان ذلك الذى لا يحيا إيمان الوصية؟ من المؤكد أنه سيشت ويضل، وسيصطاده روح الخطأ، تماماً كما تهز الرياح التراب وتطيّره، ولن يتقدم فى خطاه نحو الخلاص، لأنه لا يحفظ حق طريق الخلاص.

لكن، أيها الإخوة الأحباء، يجب أن لا نحذر فقط مما هو معلن وظاهر،

بل أيضاً مما يخدع بإحتيال ماكر مخادع، وما هى الحيلة الأكثر خداعاً والأكثر مكراً لهذا العدو ـ بعد أن فُضح وسُحق بمجئ المسيح، وبعد أن أشرق النور للأمم، وأشرقت الأشعة المخلصة من أجل حفظ الإنسان، حتى أن الأصم ينال سمع النعمة الروحية، والأعمى يفتح عينيه لله، والضعيف يتقوى مرة أخرى بصحة وقوة أبدية، والمقعد يجرى للكنيسة، والأخرس يصلى ويسبح بأصوات واضحة صافية، وبعد أن رأى أوثانه قد نُبذت وأن جموع المؤمنين قد هجرت معابده، من أن يخترع حيلة جديدة، مستخدماً الاسم المسيحى نفسه، ليخدع من هو غير حذر وغير حكيم؟ لقد اخترع بدعاً وإنشقاقات لكى يهدم بها الإيمان ويفسد الحق ويقسم الوحدة، وهؤلاء الذين لا يستطيع أن يقيدهم ويأسرهم فى ظلام الطريق العتيق، يحتال عليهم ويخدعهم بخطأ طريق جديد، فهو يصطاد أناساً من داخل الكنيسة نفسها، وبينما يظنون فى أنفسهم أنهم قد اقتربوا فعلاً من النور، وأنهم قد هربوا من ليل العالم وظلامه، يسكب فوقهم من جديد، فى جهلهم ولاوعيهم، ظلاماً جديداً، لكى بالرغم من أنهم لا يثبتون فى إنجيل المسيح ولا فى وصاياه، يظلون يسمون أنفسهم مسيحيين، وبينما هم سائرون فى الظلام يظنون أنهم يقتنون النور، بينما العدو يتملق ويكذب ويخدع، ذلك العدو الذى بحسب كلمات الرسول يغير نفسه إلى شكل ملاك نور، ويجعل خدامه يبدون كما لو كانوا خدام البر، هؤلاء الذين لهم الليل بدل النهار، الموت بدل الخلاص، اليأس تحت دعوى الرجاء، الخيانة تحت ستار الوفاء والإخلاص، ضد المسيح تحت اسم المسيح، لكى ـ بينما هم يختلقون ويزعمون أشياء مثل الحق ـ يفسدون الحق بخداعهم ومكرهم، وهذا يحدث، أيها الإخوة الأحباء، عندما لا نعود إلى ينبوع ومصدر الحق، عندما لا نطلب الرأس

(أى السيد المسيح)، ولا نحفظ تعليم الأم السمائية (أى الكنيسة).

إذا فكر أحد فى هذه الأمور وفحصها، لن تكون هناك حاجة للمناقشات المطولة والمجادلات.

ففى سفر نشيد الأناشيد يتحدث الروح القدس عن الكنيسة قائلاً «واحدة هى حمامتى كاملتى، الوحيدة لأمها هى، عقيلة والدتها هى» (نش٦ :٩). هل يظن ذاك الذى لا يتمسك بوحدة الكنيسة هذه ولا يحفظها أنه يتمسك بالإيمان ويحفظه؟ هل يعتقد ذاك الذى يقاوم الكنيسة ويعمل ضدها أنه فى الكنيسة بينما يعلم الرسول المبارك بولس نفس هذا الأمر ويعلن سر الوحدة قائلاً «جسدٌ واحد وروح واحد كما دُعيتم أيضاً فى رجاء دعوتكم الواحد، رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة، إله وآب واحد» (أف٤ :٤).

ويجب أن نتمسك بهذه الوحدة ونحفظها ونؤكد عليها بثبات، لاسيما الأساقفة الذين يرأسون فى الكنيسة، لكى نبرهن ونثبت أن الأسقفية نفسها واحدة غير منقسمة. لا تدعوا أحداً يخدع الإخوة والشركة بكذب، لا تدعوا أحداً يفسد حق الإيمان بخداع ماكر ومراوغة، فالأسقفية واحدة، كل جزء منها يحفظه كل واحد من أجل الكل، والكنيسة أيضاً واحدة، وهى منتشرة بعيداً ومتسعة فى جموع كثيرة بسبب تزايد ثمارها، كما أن هناك أشعة كثيرة للشمس لكن نور واحد، وكما أن هناك أغصان كثيرة للشجرة لكن قوة واحدة مؤسسة على جذرها القوى المتماسك، وكما أنه من النبع الواحد تنبع عدة جداول مائية ـ رغم أن الكثرة تبدو منتشرة فى إتساع غنى فائض

وفير ـ إلا أنَّ الوحدة محفوظة فى الأصل والمصدر... إفصل شعاع الشمس عن النور، تجد أن وحدته لا تسمح بتقسيم أو إنقسام النور، اكسر غصناً من شجرة، تجده لا يستطيع أن ينبت براعم أو يزهر، إفصل جدول عن نبعه، تجده جف... هكذا أيضاً الكنيسة التى أشرق عليها نور الرب، تشع بأشعتها على العالم كله، ومع ذلك، هذا النور المنتشر فى كل مكان هو نور واحد، فوحدة الجسد لا تنقسم ولا تنفصل، وغناها المثمر يظلل أغصانها على العالم كله، وهى تمد أنهارها بإتساع فتجرى بوفرة وسخاء، ومع ذلك رأسها واحد، ونبعها واحد، وهى أم واحدة، كثيرة الثمار، من رحمها نحن ولدنا، وبلبنها ننمو ونتغذى، وبروحها نحيا...

لا يمكن أن تكون عروس المسيح زانية، فهى طاهرة نقية غير فاسدة، هى تعرف بيت واحد، وتحفظ بعفة طاهرة قداسة المضطجع الواحد. إنها تحفظنا لله، وهى تعين أبناءها الذين ولدتهم للملكوت، ومن ينفصل عن الكنيسة ويرتبط بزانية يفصل نفسه عن وعود الكنيسة، ولا يستطيع ذاك الذى ترك كنيسة المسيح أن ينال مكافآت وجعالات المسيح، إنه غريب، إنه مُدنس، إنه عدو، **فلا يمكن لذاك الذى ليست الكنيسة أمه أن يتخذ الله أباً له**، ولو كان أى من الذين كانوا خارج فلك نوح قد استطاع أن ينجو، لاستطاع ذاك الذى هو خارج الكنيسة أن ينجو أيضاً، والرب يحذر قائلاً «مَنْ ليس معى فهو علىّ، ومَنْ لا يجمع معى فهو يفرق» (مت١٢ :٣٠) ومَنْ يفسد سلام المسيح، يكون مقاوماً للمسيح، ومَنْ يجمع فى أى مكان آخر غير الكنيسة يشتت كنيسة المسيح، والرب يقول «أنا والآب واحد» (يو١٠ :٣٠) وأيضاً كُتب عن الله الآب والابن والروح القدس «وهؤلاء الثلاثة هم واحد»

(١يو٥ :٧) فهل يمكن أن يظن أحد أن هذه الوحدة التى تنبع هكذا من القوة الإلهية وترتبط إرتباطاً لا ينفصم بالأسرار السمائية يمكن أن تنقسم فى الكنيسة، أو يمكن أن تقسمها القلة الضئيلة ـ ذات الأهواء والآراء المضادة ـ المنفصلة عن الكنيسة؟ إن مَنْ لا يحفظ هذه الوحدة، لا يحفظ ناموس الرب، لا يحفظ إيمان الآب والابن، لا يحفظ الحياة والخلاص.

إن سر الوحدة هذا، ورابطة السلام المتماسكة بلا إنفصال هذه، قدمه لنا الإنجيل فى صورة قميص المسيح الذى لم يُقسم ولم يُقطع، فقد أخذه هؤلاء الذين ألقوا القرعة على ثياب الرب كقميص كامل غير مُقسم ولا منقسم، هؤلاء الذين كان يجب عليهم أن يلبسوا المسيح، وتتحدث الأسفار المقدسة قائلة «وكان القميص بغير خياطة منسوجاً كله من فوق، فقال بعضهم لبعض لا نشقه بل نقترع عليه لمَنْ يكون» (يو١٩ :٢٣، ٢٤)... هذا القميص يحمل معه وحدة أتت من الرأس، أتت من السماء والآب، ويجب ألا يمزقها أبداً من يأخذها ويستلمها، بل بعيداً عن كل إنقسام، ننال كمالاً تاماً متماسكاً قوياً، وذاك الذى يُقسم كنيسة المسيح لا يستطيع أن يقتنى قميص المسيح. وهناك مثال آخر (لهذه الوحدة) فعندما قسمت مملكة سليمان بعد نياحته، وعندما تقابل أخيا الشيلونى مع يربعام الملك فى الحقل، مزق رداءه إلى إثنتى عشرة قطعة قائلاً «خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط واحد من أجل عبدى داود ومن أجل أورشليم المدينة التى اخترتها» (١مل١١ :٣١) فلأن أسباط إسرائيل الإثنى عشر قد قُسموا، لذا مزق أخيا النبى رداءه، ولكن لأن شعب المسيح لا يمكن أن

ينقسم، لذا فإن الذين أخذوا قميصه ـ الواحد الغير مخيط ـ لم يقسموه، فهو غير مقسم، بل متحد متصل ومتماسك، وبهذا يتضح السلام والمحبة السائدة وسط شعبنا الذى لبس المسيح الذى أعلن وحدة كنيسته بسر وعلامة قميصه.

إذاً هل هناك أحد شرير جداً بلا إيمان، هل هناك أحد مجنون بجنون الإنقسام حتى يظن أن وحدة الله يمكن أن تنقسم، أو يجرؤ على أن يمزقها فهى قميص الرب، كنيسة المسيح؟ والرب نفسه يحذرنا فى إنجيله ويعلم قائلاً «وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يو١٠ :١٦) وهل يعتقد أى إنسان أنه فى مكان واحد يمكن أن يوجد رعاة كثيرون وقطعان عدة؟ والرسول بولس عندما تحدث عن هذه الوحدة علم قائلاً: «ولكنى أطلب إليكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تقولوا جميعكم قولاً واحداً ولا يكون بينكم إنشقاقات بل كونوا كاملين فى فكر واحد ورأى واحد» (١كو١ :١٥) وفى موضع آخر يقول «محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام» (أف٤ :٣). هل تظن أنه يمكنك أن تثبت وتحيا إذا إنفصلت عن الكنيسة، عندما تبنى لنفسك منازل أخرى ومسكن مختلف، لأنه قيل عن راحاب التى كانت رمزاً للكنيسة «أباك وأمك وإخوتك وسائر بيت أبيك، فيكون أن كل من يخرج من أبواب بيتك إلى خارج دمه على رأسه» (يش٢ :١٩).

وأيضاً سر العبور فى شريعة الخروج يتضمن أن الحمل الذى يجب أن يُذبح كرمز للمسيح يجب أن يؤكل فى بيت واحد، ويقول الرب «فى بيت واحد يؤكل، لا تخرج اللحم من البيت إلى خارج» (خر١٢ :٤٦) فجسد

المسيح، قدس الرب، لا يمكن أن يُرسل للخارج ولا يوجد أى منزل آخر للمؤمنين إلا الكنيسة الواحدة، وإلى هذا البيت وإلى أسرته المتحدة المترابطة، يشير الروح القدس فى المزامير قائلاً «الله مُسكن المتوحدين (الذين لهم فكر واحد *with one mind*) فى بيت» (مز٦٨ :٦) ففى بيت الرب، فى كنيسة المسيح، يسكن المؤمنون بفكر واحد ويحيون فى محبة وسلام وبساطة.

لذا أيضاً أُستعلن الروح القدس على شكل حمامة، لأنها طائر بسيط وبهيج لا يتوعد (أحداً) بحقد، وليس قاسياً فى عضته، ولا عنيفاً يمزق بمخالبه، يحب السكنى مع البشر ولا يعرف إلا بيت واحد فقط، وعندما يصير للحمام أبناء يربون أولادهم معاً، وعندما يطيرون يظلون بجوار بعضهم البعض فى طيرانهم، ويقضون حياتهم فى عيشة مشتركة معلنين وحدانية السلام بقبلة المنقار، وفى كل الأمور يحققون ويعلنون قانون الوحدة والجموعية... هذه هى البساطة التى يجب أن ترى فى الكنيسة، هذه هى المحبة التى يجب أن تحفظ، حتى يقتدى الإخوة بالحمام وحتى يكون لطفهم ورفقهم مثل الحمام والخراف...

ما الذى تفعله شراسة الذئاب فى القلب المسيحى؟ ما الذى تفعله همجية الكلاب وسم الحيات المميت والقسوة الدموية التى للحيوانات المتوحشة؟ يجب أن نتلقى التهانى عندما ينفصل مثل هؤلاء عن الكنيسة لئلا يضيعوا حمام وخراف المسيح بقسوتهم وبعدواهم المسمومة، فالمرارة لا يمكن أن تتفق أو تجتمع مع الحلاوة، ولا الظلام مع النور، ولا المطر مع الصفو، ولا الحرب مع السلام، ولا العقم مع الخصوبة، ولا الجفاف مع الينبوع، ولا العاصفة مع السكون أو الهدوء، ويجب أن لا يظن أحد أن

الإنسان الصالح يمكن أن يترك الكنيسة، فالرياح لا تذرى الحنطة، والأعاصير لا تنتزع الشجرة المرتكزة على جذر قوى وثابت، بل القش الخفيف هو الذى تطيره الرياح، والأشجار الضعيفة هى التى تُقلع فى بداية الأعاصير، والرسول يوحنا يدين هؤلاء بشدة عندما يقول «منا خرجوا لكنهم لم يكونوا منا لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا» (١يو٢ :١٩).

لذا لم تظهر الهرطقات مرات عدة فقط بل وستُوجد بإستمرار، ورغم أن العقل المُفسد بلا سلام وعدم إيمان، المنقسم على نفسه، لا ينال الوحدة، إلا أن الرب يسمح بوجود هذه الأمور، بينما يظل الإختيار بإرادة الإنسان الحرة، لكى يختبر تمييز الحق قلوبنا وعقولنا، فيشرق الإيمان الصحيح لهؤلاء الذين عرفوا الحق بنور معلن، والروح القدس يحذرنا ويخبرنا على فم الرسول قائلاً «لابد أن يكون بينكم بدع ليكون المزكون ظاهرين» (١كو١١ :١٩). هكذا يزكى المؤمن وهكذا يُكتشف الخائن، وهكذا ـ حتى هنا قبل يوم الدينونة ـ تكون نفوس الأبرار ونفوس الأشرار مميزة فعلاً عن بعضها البعض، والقش منفصل عن الحنطة.... وهؤلاء (الأشرار) هم الذين بإرادتهم وحدهم ـ بدون أى ترتيب إلهى ـ يرأسون بين الغرباء المجتمعين، الذين جعلوا أنفسهم أساقفة بدون أى قانون رسامة، الذين يتخذون لأنفسهم اسم «أسقف» رغم أن أحداً لم يقيمهم للأسقفية، هؤلاء هم الذين يشير إليهم الروح القدس فى المزامير على أنهم يجلسون فى كرسى الطاعون والأوبئة، خادعين بلسان الحية، وبارعين فى إفساد الحق، ينفثون سموماً مميتة من ألسنتهم المهلكة، كلامهم يزحف مثل السرطان، ومحادثاتهم سم مميت فى قلب وصدر أى أحد.

ضد أناس من هذا النوع يصرخ الرب، ومن هؤلاء يمنع وينادى شعبه المخطئ قائلاً «لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم، فإنهم يجعلونكم باطلاً، يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب، قائلين قولاً لمحتقرى قال الرب يكون لكم سلام، ويقولون لكل من يسير فى عناد قلبه لا يأتى عليكم شر... لم أرسل الأنبياء بل هم جروا، لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا، ولو وقفوا فى مجلس لأخبروا شعبى بكلامى وردوهم عن طريقهم الردئ وعن شر أعمالهم» (أر٢٣ :١٦-٢١).

ومرة أخرى يشير الرب إلى مثل هؤلاء ويقول «تركونى أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً آباراً مشققة لا تضبط ماء» (أر٢ :١٣) ورغم أنه لا يمكن أن توجد إلا معمودية واحدة، يظنون أن بإمكانهم أن يعمدوا، ورغم أنهم تركوا ينبوع الحياة، يعدون بنعمة الماء المخلص، فالإنسان معهم (أى المبتدعين) لا يغتسل بل يتسخ، لا تتطهر خطاياه بل تزداد وتتضاعف، مثل هذا الميلاد لا يقدم أولاداً لله بل للشيطان، بكذب وخداع يولدون ولا ينالون مواعيد الحق، ولأنهم مولودون من خداع لذا يفقدون نعمة الأمانة والصدق، ولا يمكنهم أن ينالوا جعالة السلام، لأنهم مزقوا سلام الرب بجنون الإنقسام.

لا يخدعن أحد نفسه بتفسير خاطئ لقول الرب «حيثما إجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم» (مت١٨ :٢٠) فالمفسدون والمفسرون الكذبة للإنجيل يستشهدون بالكلمات الأخيرة ويتركون الكلمات الأولى، يتذكرون جزء وبمهارة يطمسون الجزء الآخر، ولأنهم هم أنفسهم منفصلون عن الكنيسة، لذا يفصلون جزء جوهرى من الآية، لأن الرب ـ

عندما تحدث إلى تلاميذه عن الجموعية والوحدة ـ قال «وأقول لكم أيضاً إن إتفق إثنان منكم على الأرض فى أى شئ يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبى الذى فى السموات، لأنه حيثما إجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم» (مت١٨: ١٩، ٢٠) وبذا أوضح أن الإستجابة لا تكون بأعداد وجموع المصلين، بل بحسب جموعية وتوافق هؤلاء الذين يصلون، فهو يقول «إن إتفق إثنان منكم على الأرض» وبذلك يقدم الإتفاق والوحدة أولاً، ويقدم رابطة السلام كشرط أساسى، وقد علم أننا يجب أن نتفق بثبات وأمانة وإخلاص، ولكن كيف لذاك الذى لا يتفق مع جسد الكنيسة نفسها ولا مع الإخوّة الجامعة المسكونية أن يتفق مع أى أحد؟ كيف يمكن لإثنين أو ثلاثة أن يجتمعوا معاً فى اسم المسيح بينما هم ـ كما هو واضح ـ منفصلون عن المسيح وإنجيله؟ لأننا لم ننفصل عنهم بل هم الذين إنفصلوا عنا، ونتيجة لذلك ظهرت الهرطقات والإنشقاقات وأقاموا لأنفسهم أماكن متعددة ومختلفة للعبادة، فقد تركوا رأس ونبع الحق، ولكن الرب كان يتحدث عن كنيسته، ويتحدث أيضاً إلى هؤلاء الذين فى الكنيسة معلماً أنهم إن كانوا متفقين، حتى وإن كانوا إثنين أو ثلاثة فقط، بحسب ما أوصى به وعلمه، واجتمعوا بوحدانية وصلوا، فرغم أنهم إثنان فقط أو ثلاثة إلا أنهم سينالون من مجد الله ما يطلبون «حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم» فبين هؤلاء البسطاء المحبين للسلام، بين هؤلاء الذين يخافون الله ويحفظون وصاياه، بين هؤلاء ـ رغم أنهم إثنان أو ثلاثة ـ قال أنه يحضر ويكون فى وسطهم، وبنفس الطريقة كما كان وسط الثلاثة فتية فى آتون النار، فلأنهم عاشوا متجهين نحو الله فى بساطة وفى جموعية وسلام ووحدة، لذا أنقذهم وأحياهم وسط ألسنة النار المحيطة بندى،

وأيضاً بنفس الطريقة التى بها، عندما كان الرسولان (بطرس وبولس) فى السجن، لأنهما كانا بسيطا الذهن ومتفقين فى الفكر والواحدانية، كان هو نفسه حاضراً وهو نفسه أخرجهم من السجن ووضعهم فى السوق لكى يعلنوا للجموع الكلمة التى كرزوا بها بصدق وأمانة، لذا عندما قال تلك الوصية بين وصاياه قال «حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون فى وسطهم» (مت١٨: ٢٠) فهو لا يفصل الناس عن الكنيسة لأنه هو نفسه مسح وصنع الكنيسة، ولكنه ـ موبخاً عديمى الأمانة بسبب إنقسامهم وتشويشهم وممتدحاً السلام بكلمته للمؤمن الأمين ـ أوضح أنه يكون حاضراً وسط إثنين أو ثلاثة يصلون بذهن واحد ولا يكون حاضراً وسط عدد كبير منقسم غير متفق، وأوضح أن ما تنال صلاة قلة متفقة هو أكثر بكثير مما تناله تضرعات منقسمة غير متفقة لكثيرين...

هكذا أيضاً عندما علمنا أن نصلى أضاف قائلاً «ومتى وقفتم تصلون فاغفروا إن كان لكم على أحد شئ لكى يغفر أيضاً أبوكم الذى فى السموات زلاتكم» (مر١١: ٢٥) وأمر ذاك الذى جاء إلى المذبح ليقدم ذبيحة وهو فى خصام مع أخوه، أن يذهب ويتصالح مع أخوه أولاً وبعدئذ يعود بسلام ويقدم تقدمته لله، فالله لم ينظر إلى تقدمات قايين، لأن الإنسان الذى ليس له ـ بسبب الإنقسامات الشريرة ـ سلام مع أخوه، لا يمكن أن يكون له سلام مع الله، فأى سلام إذن يعد به أعداء الشركة والإخوّة والوحدة أنفسهم؟ أى ذبائح يظن هؤلاء ـ الذين يدعون أنهم كهنة ـ أنهم يستطيعون تقديمها والإحتفال بها؟ هل يعتقدون أن المسيح يكون وسطهم عندما يجتمعون معاً، بينما هم يجتمعون خارج كنيسة المسيح؟!

حتى لو ذُبح هؤلاء من أجل إعترافهم بالاسم (أى اسم السيد المسيح) فلن يغسل إثمهم هذا بالدم، إذ أن خطأ الإنقسام الخطير الذى لا تفسير له، لا يمحى ولا حتى بالآلام والعذابات، ولا يمكن أبداً لذاك الذى ليس داخل الكنيسة أن يكون شهيداً، ولا يمكن أن ينال الملكوت من يهجر تلك التى ستحكم وتملك هناك (أى الكنيسة) .... لقد أعطانا السيد المسيح السلام، ويوصينا أن نحيا فى إتفاق ووحدة وأن نكون ذوى فكر واحد ورأى واحد، وأمرنا أن نحفظ روابط المحبة والأخوّة غير فاسدة بل سليمة وطاهرة، فلا يمكن أن يصير شهيداً ذلك الذى ليس عنده المحبة الأخوية، وبولس الرسول يعلم بهذا ويشهد قائلاً: «إن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً، وإن أطعمت كل أموالى وإن سلمت جسدى حتى احترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً. المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ، ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتد ولا تظن السوء، ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شئ وتصدق كل شئ وترجو كل شئ وتصبر على كل شئ... المحبة لا تسقط أبداً» (١كو١٣ :٢–٥،٧،٨) لأنها ستكون فى الملكوت إلى الأبد وسوف تثبت دوماً فى وحدة الإخوّة المرتبطة بها، ولا يمكن للإنقسام أن ينال الملكوت أو جعالة السيد المسيح الذى قال «هذه هى وصيتى أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يو١٥ :١٢) ولا يمكن لذلك الذى دنس وانتهك محبة المسيح بإنقسامه العديم الإيمان أن ينال جعالات المسيح، والإنسان الخالى من المحبة، إنسان منفصل عن الله، وكلمة الرسول المبارك يوحنا هى «الله محبة ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه» (١يو٤ :١٦) فلا يمكن لهؤلاء الذين ليس لهم فكر واحد فى كنيسة الله

أن يسكنوا مع الله أو يتحدوا به، ورغم أنهم يُحرقون ويُقدمون للنيران أو يقدمون حياتهم ويلقون للحيوانات المتوحشة، إلا أن ذلك كله لن يكون إكليل الإيمان، بل عقاب الخيانة والإنشقاق(+)، ولن يكون النهاية المجيدة للشجاعة الدينية بل هو دمار اليأس، ومثل هذا الإنسان يمكن أن يُذبح ولكن لا يمكن أبداً أن يُكلل، وهو ينذر نفسه أن يكون مسيحياً بنفس الطريقة التى يزعم بها الشيطان ويدعى أحياناً أنه هو المسيح، مثلما حذرنا الرب نفسه مسبقاً وقال «كثيرين سيأتون باسمى قائلين إنى أنا هو ويضلون كثيرين» (مر١٣ :٦) وكما أنه ليس المسيح ـ رغم أنه يخدع بهذا الاسم ـ هكذا أيضاً لا يمكن أن يكون مسيحى ذاك الذى لا يثبت فى حق الإنجيل وحق الإيمان.

إن النبوة وإخراج الشياطين وعمل أمور عظيمة على الأرض، هى بكل تأكيد شئ جليل يمتدح، ولكن الإنسان لا يمكن أن يبلغ الملكوت ـ حتى وإن كان يفعل هذا كله ـ ما لم يسر فى طريق البر، والرب يعلن ويقول «كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا الشياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ اصرح لهم إنى لم أعرفكم قط، اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم» (مت٧ :٢٢) فالبر لازم وضرورى كى يستحق الإنسان جعالة الرب الديان العادل، ويجب أن نطيع وصاياه وتحذيراته حتى تنال فضائلنا مكافأته، والرب فى إنجيله عندما أوضح طريق رجائنا وإيماننا فى ملخص موجز قال «الرب إلهنا رب واحد،

(+) المقصود هنا أن العذابات والآلام لن تُقبل من المنشقين والهراطقة ولا تحسب لهم شهادة، فلا إستشهاد خارج الكنيسة.

وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هى الوصية الأولى، وثانية مثلها هى تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين» (مر١٢ :٢٩-٣١) وفى نفس الوقت علم المحبة والوحدة بتعاليمه، وقد ضمن كل الأنبياء والناموس فى وصيتين، ولكن أى وحدة يحفظها وأى محبة له، ذاك الذى ـ وهو همجى بجنون الإنقسام ـ يقسم الكنيسة ويدمر الإيمان، ويزعج السلام، يفتت المحبة ويدنس الأسرار؟!

هذا الشر، أيها الإخوة المؤمنون، قد بدأ منذ أمد بعيد، ولكن التدمير الضار المؤذ الذى لنفس هذا الشر تزايد الآن، فبدأ وباء ضلال الهرطقات والإنقسامات المسموم يستفحل ويستشرى من جديد، لأنه هكذا سيكون فى نهاية العالم، لأن الروح القدس يخبرنا ويحذرنا بالرسول قائلاً «فى الأيام الأخيرة ستأتى أزمنة صعبة، لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم محبين للمال متعظمين مستكبرين مجدفين غير طائعين لوالديهم غير شاكرين دنسين بلا حنو، بلا رضى، ثالبين، عديمى النزاهة، شرسين غير محبين للصلاح، خائنين، مقتحمين، متصلفين محبين للذات دون محبة لله، لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها، فاعرض عن هؤلاء، فإنه من هؤلاء هم الذين يدخلون البيوت ويسبون نسيات محملات خطايا منساقات بشهوات مختلفة، يتعلمن فى كل حين ولا يستطعن أن يقبلن إلى معرفة الحق ابداً، وكما قاوم ينيس ويمبريس موسى كذلك هؤلاء أيضاً يقاومون الحق، أناس فاسدة أذهانهم ومن جهة الإيمان مرفوضون، لكنهم لا يتقدمون أكثر لأن حمقهم سيكون واضحاً للجميع كما كان حمق ذينك أيضاً» (٢تيمو٣ :١-٩).

وقد تحقق كل ما تنبأ عنه، ولأن نهاية العالم تقترب، لذا تحققت هذه الأشياء من أجل إمتحان الناس والأزمنة، والإثم يخدع لأن العدو يهتاج أكثر وأكثر، وفقدان الوعى والحس يرفع، الحسد يلهب، الشهوة تعمى، عدم التقوى يفسد، الغرور والعجب ينفخ، الإنقسام ينتج سخطاً، الغضب ينتج تهوراً وطيشاً...

لا تدعوا عدم التقوى وعدم الإيمان الذى لكثيرين يحركنا أو يزعجنا، بل على العكس دعوه يقوى إيماننا فى ملء الحق الذى سبق فأخبرنا بهذه الأمور، ولأن البعض قد صاروا هكذا، ولأننا قد أُخبرنا مسبقاً عن هذه الأمور، لذا فليحذر الإخوة الآخرون من الأمور الشبيهة لهذه، لأن هناك أيضاً نبوات عن هذه الأمور، والرب نفسه علمنا قائلاً «فانظروا أنتم، ها أنا سبقت وأخبرتكم بكل شئ» (مر١٣ :٢٣). وإنى أحثكم أيها الإخوة أن تتجنبوا الرجال الذين من هذا النوع وابعدوا عنكم وعن آذانكم ـ كما لو كان سم الموت ـ أحاديثهم المؤذية الضارة، لأنه مكتوب «المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة» (١كو١٥ :٣٣) والرب يعلمنا أن نبتعد عن هؤلاء فيقول «هم قادة عميان قادة عميان، وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة» (مت١٥ :١٤) مثل هذا الإنسان يجب أن نبتعد عنه ونتجنبه ـ أياً كان ـ طالما أنه خارج الكنيسة، فمثل هذا الإنسان يضل ويخطئ ويُدان من نفسه، أيظن أن له المسيح ذاك الذى يقاوم كهنة المسيح ويفصل نفسه عن شركة إكليروس المسيح وشعبه؟! إنه يحمل الأسلحة ضد الكنيسة، ويقاوم تعيين وإختيار الله، عدو للمذبح ومتمرد على ذبيحة المسيح، وبالنسبة للإيمان بلا إيمان، وبالنسبة للديانة مدنس، عبد غير مطيع،

ابن عاق، أخ معاد، يزدرى بالأساقفة ويهجر وينبذ كهنة الله، لذا يجروء على أن يقيم مذبح آخر، وأن يرفع صلاة أخرى بكلمات غير قانونية، وأن يدنس حق تقدمة الرب بذبائح مزيفة، ولا يعلم أن من يقاوم إختيار وتعيين الرب، يعاقب بسبب تهوره بعقاب إلهى...

وهكذا نال قورح وداثان وابيرام الذين حاولوا أن ينسبوا لأنفسهم حق تقديم الذبيحة، مقاومين موسى وهارون الكاهن، عقاباً فورياً لمحاولتهم هذه، فانشقت الأرض وانحلت رباطاتها وانفتحت فيها هوة عميقة وابتلعت الرجال الواقفين أحياء، ولم يضرب غضب الرب هؤلاء الذين حرضوا (على الإنشقاق) فقط بل وأيضاً مئتين وخمسين مشاركاً فى هذا الجنون، الذين اشتركوا معهم فى حماقتهم، فإلتهمتهم النار الخارجة من عند الرب بإنتقام سريع، وكان هذا بلا شك لنتعلم أن كل ما سعى إليه هؤلاء الرجال الأشرار، لكى يغيروا تعيين واختيار الله بإرادتهم البشرية، كان مقاومة الله، وهكذا أيضاً عزيا الملك عندما حمل بخوراً وأدعى بالقوة لنفسه حق تقديم الذبيحة مخالفاً شريعة الرب، وعندما قاومه عزاريا الكاهن، لم يطع ولم يستجب، لذا لُعن بالغضب الإلهى، وضُربت جبهته بمرض البرص... فقد ضربه الرب بعلامة فى هذا الموضع من جسده حيث ينال علامة من الرب هؤلاء الذين يزكيهم، وأيضاً أبناء هارون عندما وضعوا ناراً غريبة لم يأمر بها الرب، خرجت نار من عند الرب وأكلتهم فماتا أمام الرب.

إنهم (أى المبتدعين والمنشقين) يتبعون هذه الأمثلة بلا شك، هؤلاء الذين ـ محتقرين ومزدرين بتقليد الله ـ يسعون وراء تعاليم غريبة ويدخلون تعاليم عن إختيارات ودعوة بشرية، وهؤلاء يوبخهم الرب فى إنجيله قائلاً

«رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم» (مر٧:٩). إنها خطية أردأ من تلك التى يسقط فيها المرتدون الذين تركوا الإيمان، الذين، برغم إرتدادهم، عندما يتوبون عن جريمتهم يتضرعون لله بندم كامل، فى هذه الحالة يسعون وراء الكنيسة ويستعطفونها، بينما فى الأخرى يقاومون الكنيسة، هنا من المحتمل أنه كانت هناك ضرورة وإجبار (لأن ينكروا الإيمان)، أما هناك فالشر يصنع بإرادة حرة، من ناحية، الذى إرتد لا يؤذى سوى نفسه، ومن الناحية الأخرى، من يسعى ليحدث بدعة أو إنقسام يخدع كثيرين بأن يجذبهم خارجاً، فى حالة الأول (المرتد) هى خسارة نفس واحدة، فى الثانية هى خسارة نفوس كثيرة، وبالتأكيد الأول يفهم ويعى أنه أخطأ وينوح ويندم على خطيته، أما الآخر (المبتدع) ـ وهو مغرور ومنتفخ فى قلبه ومرضياً ذاته فى جريمته ـ يفصل أبناء عن أمهم، ويضلل قطيعاً عن راعيه، ويشوش ويزعج أسرار الله، وبينما المرتد قد أخطأ مرة، يخطأ المبتدع كل يوم، أخيراً، المرتد الذى استشهد (بعد توبته) ينال مواعيد الملكوت، بينما الأخر (المنشق أو المبتدع) فحتى لو ذُبح خارج الكنيسة لا يمكن أن ينال جعالات الكنيسة...

لا يتعجب أحد أيها الإخوة الأحباء، أنه حتى بعض المعترفين يسقطون فى هذه الأعماق، وأن بعضاً آخر منهم يخطأ هكذا بإثمهم بصورة مخزية، لأن الاعتراف لا يجعل الإنسان حراً من فخاخ الشيطان ولا يحمى الإنسان الموجود فى العالم بحماية دائمة من التجارب والأخطار والهجمات ومحاربات العالم، وإلا ما كنا رأينا فى المعترفين هذه الآثام والزنى والخطايا التى نراها الآن بحزن وأنين فى البعض منهم، وأياً كان المعترف فإنه لن

يكون أفضل ولا أعظم ولا أقرب إلى الرب من سليمان الذى، بالرغم من أنه طوال سلوكه فى طرق الرب كان يحفظ النعمة التى نالها من الرب، إلا أنه عندما ترك طريق الرب فقد أيضاً نعمته، لذا كُتب «تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤ٣: ١١) وما كان الرب بالتأكيد ليحذر بأن إكليل البر يمكن أن يؤخذ، ما لم يكن الإكليل يُفقد بفقدان البر...

إن الإعتراف هو بداية المجد ولكنه ليس جعالة الإكليل الأخيرة، وهو لا يُكمل مدحنا بل يبدأ مجدنا، وإذ هو مكتوب «الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت١٠: ٢٢) إذاً كل ما هو قبل المنتهى هو خطوة بها نصعد لننال الخلاص، ولكنه ليس المنتهى حيث ننال جعالة الصعود. هو معترف، ولكن بعد إعترافه هو أكثر عرضة للخطر لأن العدو يكون أكثر حنقاً وغيظاً، إنه معترف، لذا يجب عليه بالأكثر أن يحيا بحسب إنجيل الرب لأنه بالإنجيل نال مجداً من الرب، والرب يقول «فكل من أُعطى كثيراً يُطلب منه كثيراً ومن يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر» (لو١٢: ٤٨) لا تدعن أحد يعثر بمثال معترف (سقط وإنحرف عن طريق الخلاص)، لا تدعوا أحداً يتعلم الظلم، لا تدعوا أحداً يتعلم الغرور والكبرياء، لا تدعوا أحداً يتعلم الخيانة والإنشقاق، من سلوكيات معترف... هو معترف، إذاً يجب أن يكون متواضعاً وهادئاً ومعتدلاً وعفيفاً فى كل شئ بتلمذة، حتى أن ذاك الذى يدعى «معترف بالمسيح» يقتدى بالمسيح الذى يعترف به، فإن كان السيد المسيح يقول «كل من يرفع نفسه يتضع، وكل من يضع نفسه يرتفع» (لو١٨: ١٤) وإن كان هو نفسه قد رفعه الآب، لأنه مع أنه الكلمة وقوة وحكمة الله الآب، وضع نفسه على الأرض، فكيف يمكن أن يحب الغرور

أو الكبرياء، وهو الذى علمنا الإتضاع، وهو نفسه أُعطى اسماً فوق كل اسم من الآب مكافأة له على إتضاعه؟

والمعترف لا يكون معترفاً حقاً بالمسيح إلا إذا لم يجدف فيما بعد على عظمة ومجد وكرامة المسيح... لا تدعوا الفم الذى اعترف بالمسيح ينطق بالشر، لا تدعوه يكون مثيراً للقلاقل والإنقسامات، لا تدعوه يسمع وهو يتلفظ بالتوبيخات والمشاجرات، لا تدعوه، بعد أن نطق بكلمات التسبيح، يقذف سم الحيات ضد الإخوة وضد كهنة الله، ولكن إن صار أى معترف، فيما بعد، مستحقاً للوم ومدان، إن أضاع إعترافه بكلام وأحاديث شريرة، إن دنس حياته فى آثام مخزية، إن، أخيراً، انفصل عن الكنيسة التى فيها كان معترفاً، وعمل على تمزيق رباط الوحدة، فسيترك إيمانه الأول ويكون له بدلاً منه عدم إيمان... لا يتملق أو يخدع أحد نفسه بسبب اعترافه ويظن أنه مُختار لجعالة المجد، لأن هذا يزيد من إستحقاقه للعقاب...

لأن الرب اختار يهوذا بين الرسل ولكن يهوذا خانه بعد ذلك، ومع ذلك لم يتزعزع إيمان وثبات الرسل، لأن يهوذا الخائن سقط من شركتهم، هكذا أيضاً فى موضوعنا هذا، لا تنقص أو تقل قداسة وكرامة المعترفين لأن إيمان البعض منهم قد فسد، والرسول المبارك بولس يتحدث فى رسالته عن هذا الأمر فيقول «فماذا إن كان قوم لم يكونوا أمناء، أفلعل عدم أمانتهم يبطل أمانة الله، حاشا، بل ليكن الله صادقاً وكل إنسان كاذباً» (رو٣: ٣) فالجزء الأعظم والأفضل من المعترفين يقف ثابتاً فى قوة إيمانه وأمانته وفى حق الوصايا والتلمذة للرب، ولا ينفصلون عن سلام الكنيسة، هؤلاء الذين يتذكرون أنهم نالوا نعمة فى الكنيسة بتعطفات الله ومراحمه الجزيلة،

وبفعلهم هذا ينالون مدحاً أعظم لأمانتهم، لأنهم ابتعدوا عن ضلالة هؤلاء الذين اشتركوا معهم فى الاعتراف، وابتعدوا عن موت الخطية. ولأنهم استناروا بنور الإنجيل الحقيقى، ولأن بهاء الرب النقى اللامع قد أشرق عليهم، لذا صاروا مستحقين للمدح فى حفظهم لسلام المسيح كما كانوا مستحقين للمديح فى إنتصارهم فى الصراع مع الشيطان...

إنى أتمنى، أيها الإخوة الأحباء، وأسعى وأعلم، أنه إن أمكن لا يفنى أحد من الإخوة، فالأم الفرحة تحتضن فى صدرها وقلبها جسداً واحداً هو شعب متفق متحد، لكن حتى وإن عجزت النصيحة المحذرة عن أن ترد إلى طريق الخلاص بعض قادة الإنشقاقات والمسببين للقلاقل والإنشقاقات، الذين يحيون فى جنون أعمى عنيد، تنبهوا أنتم، وسواء خدعتم بسبب بساطتكم، أو خدعتم ببعض حيل المخادع المضل، حرروا أنفسكم من شباك الخداع، وحرروا أقدامكم من الخطأ، اعرفوا الطريق الحقيقى المستقيم المؤدى إلى الطريق السمائى، وكلمة الرسول الشاهد هى: «نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب التعليم (التقليد) الذى أخذه منا» (٢تس٣ :٦). وأيضاً يقول «لا يغركم أحد بكلام باطل لأنه بسبب هذه الأمور يأتى غضب الله على أبناء المعصية فلا تكونوا شركاءهم» (أف٥ :٦)، لذا يجب أن نبتعد، بل نفر ونهرب، من هؤلاء الذين ضلوا لئلا، بينما الإنسان له شركة مع هؤلاء الذين يسيرون فى الشر وفى دروب الإثم والخطية، يضل هو نفسه أيضاً عن الطريق الحقيقى ويوجد مداناً...

إن الله واحد، والمسيحى واحد، وكنيسته واحدة، والإيمان واحد،

والشعب متحد فى وحدة الجسد الواحد الجوهرية برباط السلام، فلا يمكن أن تنقسم الوحدة، ولا يمكن أن يُقسّم الجسد بتفرقة أعضائه، ولا يمكن أن يُمزق أو تُمزق أعضاؤه عن طريق الإنقسامات... كل منْ خرج من الرحم (رحم الكنيسة) لا يمكنه أن يحيا أو يتنفس وهو منفصل عنه، إذ عندئذ يفقد جوهر الصحة والحياة...

إن الروح القدس يحذرنا قائلاً «منْ هو الإنسان الذى يهوى الحياة ويحب كثرة الأيام ليرى خيراً، صن لسانك عن الشر وشفتيك عن التكلم بالغش، حد عن الشر واصنع الخير، اطلب السلامة واسع وراءها» (مز٣٤ :١٢، ١٣) فابن السلام يجب أن يطلب السلام ويسعى وراءه، وذاك الذى يعرف ويحب رابطة المحبة، يجب أن يصن لسانه عن شر الإنقسامات....

وبين وصاياه الإلهية وتعاليمه، عندما اقترب الرب جداً من آلامه، أضاف قائلاً «سلامى اترك لكم سلامى أعطيكم» (يو١٤ :٢٧) وقد أعطانا هذا كميراث، ووعد بأن ننال كل العطايا والجعالات التى تحدث عنها إذا حفظنا السلام، فإن كنا وارثين مع المسيح، لنحيا فى سلام مع المسيح، وإن كنا أبناء الله يجب أن نكون صانعى سلام، فقد قال «طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون» (مت٥ :٩) فيجب أن يكون أبناء الله صانعى سلام ذوى قلب شفوق، بسطاء فى الكلام، متفقين فى المحبة، مرتبطين ببعضهم البعض برباطات الجموعية والوحدانية...

هذه الوحدانية والجموعية كانت سائدة بين الرسل، لذلك كان المؤمنون

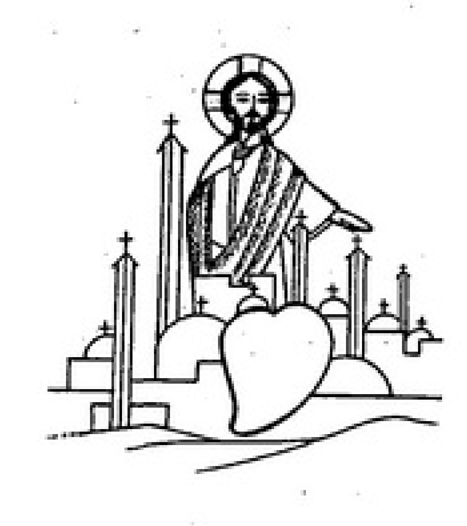
الجدد، الذين كانوا يحفظون وصايا الرب، يحفظون هذه المحبة أيضاً، والكتاب المقدس يقدم الدليل على ذلك عندما يقول «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة» (أع٤: ٣٢) وأيضاً يقول «كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته» (أع١: ١٤) وهكذا صلوا صلوات مقبولة، وهكذا استطاعوا بثقة أن ينالوا كل ما ترجوه من سخاء الله ومراحمه...

ولكن الوحدانية تتناقص كلما قل سخاؤنا فى الأعمال الصالحة، فقد باعوا (أى المسيحيين الأوائل) بيوتهم وأراضيهم لكى يكنزوا لهم كنوزاً فى السماء، وقدموا أثمانها للرسل من أجل حاجة الفقراء، ولكننا الآن لا نعطى حتى العشور مما نملك، وبينما الرب يأمرنا أن نبيع، نحن نشترى ونزيد مخازننا، وهكذا تضاءلت قوة الأمانة بيننا، وضعفت قوة إيمان المؤمنين، لذلك قال الرب فى إنجيله وهو يرى أيامنا هذه «متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض؟» (لو١٨: ٨) وها قد حدث ما سبق وأخبرنا به. لا يوجد إيمان فى خوف الله، فى وصايا البر، فى المحبة، فى العمل، لا أحد يفكر فى خوف من يوم الدينونة، لا أحد يضع فى قلبه يوم الرب أو عقاب الله، أو عقاب غير المؤمنين فى الدهر الآتى، ولا العذابات الأبدية التى لغير المؤمنين، هذا ما كان ضميرنا ليخشاه لو كان مؤمناً، ولكنه لا يخاف ولا يخشى لأنه ليس مؤمناً على الاطلاق، ولكنه إن آمن سيحذر، وإن حذر سينجو...

لنستنهض قلوبنا بكل ما فى وسعنا من جهد أيها الإخوة الأحباء، ولنخرج من نعاس غفلتنا الماضى، وليسهر كل واحد منا على حفظ وتتميم

وصايا الرب ولنكن كما أمرنا هو نفسه أن نكون قائلا «أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة وأنتم مثل أناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت» (لو١٢: ٣٤، ٣٥)...

ينبغي أن نكون قائمين مستعدين وأحقاؤنا ممنطقة، لئلا عندما يأتي يوم إنطلاقنا نُوجد مقيدين، فليضئ نورنا فى الأعمال الصالحة، وليتألق بحكمة حتى يخرجنا من ليل هذا العالم إلى نهار البهاء الأبدى، ولننتظر دوماً، باستعداد واحتراس، مجئ ربنا المفاجئ، حتى عندما يقرع، يكون إيماننا يقظ مستعد، وننال من الرب جعالة سهرنا... إذا حُفظت هذه الوصايا، إذا حُفظت هذه التحذيرات والتعاليم، فلن نُهزم فى نعاس بخداع الشيطان، بل سنملك مع المسيح فى ملكوته مثل العبيد الساهرين...



عرض لكتاب

الصلاة الربانية

On The Lord's Prayer

يستهل القديس كبريانوس كتابه عن الصلاة الربانية(+) بالتأكيد على أهمية التعاليم والوصايا الإنجيلية، إذ هى الأساس الذى ينبنى عليه رجاؤنا، وهى التى تقوى إيماننا وتبهج قلوبنا، وترشدنا فى طريقنا، وتحرسنا لننال الخلاص، وهكذا بينما تعلم المؤمنين على الأرض، تقودهم إلى ملكوت السموات.

وقد أعلن الله أموراً كثيرة عن طريق أنبيائه وخدامه، ولكن كم أعظم جداً هى تلك الأمور التى علمها الابن نفسه، فهو لا يأمر الآن بأن تعد الطريق لمجيئه، بل أتى هو بنفسه وفتح لنا الطريق وأعلنه، حتى يمكننا نحن الذين كنا تائهين فى ظلام الموت وعميان، بعد أن استترنا بنور المعمودية، أن نحفظ طريق الحياة مع الرب حاكمنا ومرشدنا.

وربنا يسوع نفسه ضمن تعاليمه الخلاصية أعطانا صيغة للصلاة، ونصحنا وعلمنا ما يجب أن نصلى لأجله، فكما أعطانا الحياة علمنا أيضاً أن نصلى، كى بينما نصلى للآب فى هذه الصلاة التى علمنا الابن إياها يُستجاب لنا بسهولة أكثر.

+) انظر كتابنا «العلامة ترتليان» حيث تجد فيه النص الكامل لكتابه «الصلاة الربانية» والذى تأثر به القديس كبريانوس كثيراً فى كتابه هذا....

وقد تنبأ فعلاً أن الساعة آتية «حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» (يو٤ :٣٠) وتمم ما كان قد سبق ووعد به حتى يمكننا نحن الذين بتقديسه نلنا الروح والحق، أن نعبد بتعليمه بالروح والحق، إذ ما الذى يمكن أن يكون صلاة بالروح أكثر من تلك التى علمنا المسيح إياها؟ أى صلاة لله الآب يمكن أن تكون بالحق أكثر من تلك التى يعلمها لنا المسيح، الذى هو الحق، بفمه هو؟ لذلك فإن عدم الصلاة حسبما علمنا لا يعنى فقط الجهل بل وأيضاً خطية لأنه هو نفسه الذى وضع هذه الصلاة وقال «رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم» (مر٧ :٩).

لذلك يجب أن نصلى كما علمنا الله معلمنا أن نصلى، فهى صلاة ود ومحبة نتضرع فيها إلى الله بكلمته هو، ونأتى إليه بصلاة المسيح، كى يتعرف الآب على كلمات ابنه عندما نصلى، وكى كما يسكن فى قلوبنا، يسكن أيضاً فى أصواتنا، وإذ هو المحامى والمدافع عنا عند الآب، يجب علينا نحن ــ عندما نتضرع كخطاة لأجل خطايانا ــ أن نقدم كلمات محامينا فإذا كان يقول «كل ما طلبتم من الآب باسمى يعطيكم» فكم بالأحرى جداً أن ننال ما نطلب باسم المسيح إذا طلبناه بكلماته هو.

والمسيح إلهنا يدعونا لأن نصلى بهدوء وتعقل وإحتشام، فلابد أن ندرك أننا واقفون أمام عينى الله ويجب أن نرضى العيون الإلهية بلباس الجسد وأيضاً بنغمة الصوت، لأنه كما أن سمة الإنسان الفاجر أن يصنع ضوضاء كثيرة بصراخه، فمن الناحية الأخرى، يليق بالإنسان المتضع أن يصلى بتضرعات عاقلة متضعة.

وقد أوصانا الرب فى تعليمه أن نصلى فى الخفاء، فى مخادعنا، فهذا أمر مناسب تماماً للإيمان، حتى ندرك أن الله حاضر فى كل مكان ويسمع ويرى الجميع لأنه مكتوب «ألعلى إله من قريب يقول الرب ولست إلهاً من بعيد، إذا إختبأ إنسان فى أماكن مستترة أفما أراه أنا يقول الرب» (أر٢٣ :٢٣، ٢٤) وأيضاً «عينا الرب مراقبتين الطالحين والصالحين» (أم١٥ :٣). وعندما نلتقى بالإخوة فى الكنيسة ونحتفل بالذبيحة الإلهية مع كاهن الله، يجب أن نحفظ الإتضاع والتلمذة، وليس أن نقدم صلواتنا بغير تمييز بأصوات عالية أو نتضرع لله بضوضاء مزعجة، فليس هناك من داع لذلك لأنه يرى أفكار الإنسان كما يعلمنا الرب قائلاً «لماذا تفتكرون بالشر فى قلوبكم» (مت٩ :٤) وفى موضع آخر «فستعرف جميع الكنائس أنى أنا هو الفاحص الكلى والقلوب» (رؤ٣ :٢٣).

إن حنة المذكورة فى سفر الملوك الأول، والتى كانت رمزاً ومثالاً للكنيسة، كانت تحفظ هذا كله، فكانت تصلى إلى الله بهدوء وتعقل فى أعماق قلبها وليس بضوضاء مزعجة، وكانت تتحدث بصلاة خفية لكن بإيمان مستعلن، ولم تصلى بصوتها بل بقلبها لأنها عرفت أن الله يسمع هكذا، وبالفعل نالت ما طلبت لأنها سألت بإيمان، ويؤكد الكتاب المقدس ذلك عندما يقول «كانت تتحددث فى قلبها وشفتاها فقط تتحركان وصوتها لم يسمع» (١صم١ :١٣) ونقرأ أيضاً فى المزامير «تكلموا فى قلوبكم على مضاجعكم واسكتوا» (مز٤ :٤).

ويستمر القديس كبريانوس فى تعليمنا عن الطريقة الصحيحة المقبولة عند الله للصلاة، فيشرح أن من يصلى يجب ألا يجهل الطريقة التى صلى بها

العشار مع الفريسى فى الهيكل، ليس بعيون مرتفعة بجرأة إلى السماء ولا بأيادى مرفوعة بإفتخار بل قرع صدره واعترف بخطاياه متضرعاً وطالباً معونة الرحمة الإلهية، وبينما كان الفريسى مسروراً بذاته، وُجد العشار مستحقاً لأن يُبرر، لأنه لم يضع رجاء خلاصه فى ثقته ببرارته ـ إذ ليس هناك أحد بار ـ بل صلى بإتضاع معترفاً بخطاياه، فسمع ذاك الذى يغفر للمتضع من العشار، وقد سجل لنا الرب هذه الأمور فى إنجيله قائلا: «إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا واحد فريسى والآخر عشار، أما الفريسى فوقف يصلى فى نفسه هكذا: اللهم أنا أشكرك أنى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار، أصوم مرتين فى الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه، وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع على صدره قائلاً اللهم ارحمنى أنا الخاطئ، أقول لكم أن هذا نزل إلى بيته مبرراً دون ذاك، لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع» (لو١٨ :١٠-١٤).

ثم ينتقل كبريانوس إلى موضوع كتابه بالتحديد ألا وهو الصلاة الربانية، فيقول أننا بعد أن تعلمنا هذه الأمور السالفة الذكر من الكتاب المقدس وتعلمنا الطريقة التى ينبغى أن نصلى بها، يجب الآن أن نعرف من تعليم الرب كيف نصلى لأنه يقول «فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذى فى السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين».

أول كل شئ لم يسمح معلم السلام والوحدة أن تُقدم الصلاة بصورة فردية كما لو كان من يصلى يطلب لأجل نفسه فقط، لأننا لا نقول «أبى الذى فى السموات» ولا «خبزى كفافى أعطنى اليوم» ولا يطلب أحد أن تغفر ذنوبه هو فقط، ولا يطلب أحد ألا يدخل فى تجربة أو ينجو من الشيطان هو وحده، فصلاتنا جماعية جمهورية، وعندما نصلى لا نطلب لأجل واحد فقط، بل لأجل الشعب كله، لأننا نحن جميعاً واحد، وإله السلام ومعلم الإتفاق الذى علم الوحدة يريد من الإنسان أن يصلى هكذا لأجل الجميع مثلما حملنا هو نفسه جميعنا فى واحد.

وقد حفظ الفتية الثلاثة القديسون قانون الصلاة هذا عندما ألقوا فى آتون النار، إذ صلوا معاً بقلب واحد فى إتفاق الروح، وهذا ما يؤكده لنا إيمان الكتاب المقدس، وفى تعليمه لنا كيف صلوا يقدم لنا مثالاً يجب أن نتبعه فى صلاتنا كى نصير مثلهم، فهم قد تكلموا كما من فم واحد رغم أن المسيح لم يكن قد علمهم بعد كيف يصلون، ولذلك كانت صلاتهم فعالة لأن الصلاة الروحية المخلصة السلامية حسنة ومقبولة عند الله، وبالمثل نجد أن الرسل أيضاً صلوا هكذا مع التلاميذ بعد صعود الرب «كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته» (أع١ :١٤) واستمروا بإتفاق واحد فى الصلاة معلنين أن الله لا يقبل فى المنزل الإلهى الأبدى إلا هؤلاء الذين يصلون صلاة جماعية بإتفاق.

ويتعجب القديس كبريانوس من روعة وعظمة الصلاة الربانية قائلاً: «أى أمور عميقة متضمنة فى الصلاة الربانية!! كم عديدة وكم عظيمة!! قليلة

فى الكلمات، لكن غنية روحياً فى الفضيلة» فكل ما يمكن أن نقوله فى صلواتنا وتضرعاتنا متضمن فى هذه الصلاة.

«أبانا الى فى السموات» فالإنسان الجديد المولود ثانية والمُستعاد إلى إلهه بنعمته يقول «أبانا» فى بداية صلاته لأنه قد بدأ الآن يكون ابناً «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون باسمه» (يو١ :١١). لذلك فإن الإنسان الذى آمن باسمه والذى صار ابناً لله، يجب أن يبدأ يشكر الله ويعترف بأنه ابن لله وذلك بأن يعلن أن الله هو أبوه الذى فى السموات، وبأن يشهد أيضاً بالكلمات الأولى من صلاته لميلاده الجديد وأنه قد ترك الأب الأرضى الجسدى، وأنه قد صار له أب جديد وهو الذى فى السموات كما هو مكتوب «الذى قال عن أبيه وأمه لم أرهما وبإخوته لم يعترف وأولاده لم يعرف بل حفظوا كلامك وصانوا عهدك» كما أن الرب فى إنجيله أوصانا أن «لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات» (مت٢٣ :٩) وأجاب على التلميذ الذى طلب أن يدفن أباه قائلاً «دع الموتى يدفنون موتاهم» (مت٨ :٢٢) لأنه قال أن أباه كان ميتاً بينما أبو المؤمنين حى.

ولا يجب فقط أن ندعو الله «الأب الذى فى السموات» بل يجب أن نضيف إليها «أبانا» أى أبو هؤلاء الذين يؤمنون، أبو كل الذين تقدسوا به وبميلاد النعمة الروحية والذين بدأوا يكونون أبناءً لله.

ولا يمكن لشعب خاطئ أن يكون ابناً، لأن إسم الأبناء يُعطى فقط

للذين وُهب لهم غفران الخطايا والذين لهم وعد الأبدية، حسب كلمات ربنا نفسه «أنتم من أب هو أبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا، ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق» (يو٨: ٤٤).

ويتعجب القديس كبريانوس ثانية «كم عظيم هو غفران الرب!! كم عظيم هو تنازله ووفرة صلاحه نحونا، إذ أراد أن نصلى أمام الله بطريقة ندعو فيها الله أباً، وندعو أنفسنا أبناء لله، وهو اسم لم يكن أحد منا ليجروء أن يقوله فى الصلاة إلا إذا كان هو نفسه قد سمح لنا أن نصلى هكذا!!».

إذا لابد أن نتذكر ونعرف أننا عندما ندعو الله أباً، يجب أن نسلك كأبناء لله، كى بنفس المقدار الذى به نجد مسرة فى أن ندعو الله أباً، يمكنه هو أيضاً أن يجد مسرة فينا.

ويدعونا كبريانوس لأن نتحدث كهياكل لله حتى يكون واضحاً أن الله يسكن فينا، وأن لا نجعل أعمالنا تنفصل عن الروح، حتى يمكننا نحن الذين قد بدأنا نكون سمائيين وروحيين أن نفكر فى الأمور السمائية والروحية فقط، لأن ربنا نفسه قد قال «إنى أكرم الذين يكرموننى والذين يحتقروننى يصغرون» (١ صم٢: ٣٠) والرسول المبارك أيضاً قال فى رسالته «قد أُشتريتم بثمن فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى لله» (١ كو٦: ٢٠).

وبعد ذلك نصلى «**ليتقدس اسمك**» وهذا لا يعنى أننا نتمنى لاسم الله أن يتقدس بصلواتنا، بل يعنى أننا نتضرع إليه لكى يتقدس اسمه فينا، إذ منْ

ذا الذى يقدس الله إذا كان هو نفسه الذى يقدس؟ لأنه يقول «فتتقدسون وتكونون قديسين لأنى أنا الرب إلهكم» (لا٢٠: ٧)، فنطلب ونتضرع كى نثبت، نحن الذين تقدسنا فى المعمودية، فيما قد بدأنا أن نكونه أى أبناء لله، ونصلى يومياً لأجل ذلك، لأننا نحتاج إلى التقديس اليومى، وهكذا نستطيع نحن الذين نسقط كل يوم أن نغسل خطايانا بالتقديس اليومى، والرسول يشرح هذا التقديس الموهوب لنا بمراحم وتعطف الله فيقول «لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله، وهكذا كان أناس منكم، لكن إغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع المسيح وبروح إلهنا» (١ كو٦: ٩).

فهو يقول أننا تقدسنا باسم ربنا يسوع المسيح وبروح إلهنا، ونحن نصلى كى يظل فينا هذا التقديس، ولأن ربنا وديانا يحذر الإنسان الذى شفاه من أن يخطئ ثانية لئلا يكون له أشر، لذا نطلب هذا نهاراً وليلاً، كى بحماية الله وعنايته يحفظ فينا التقديس المُعطى لنا من نعمته.

ثم نصلى «**ليأت ملكوتك**» أى نطلب أن يستعلن ملكوت الله لنا كما نطلب أن يتقدس اسمه فينا، إذ متى لا يملك الله؟ فنطلب أن يأتى الملكوت الذى وعدنا به الله والذى ثمنه دم وآلام المسيح، حتى نملك نحن مع المسيح عندما يملك فى الدهر الآتى بعد ما كنا شعبه فى العالم، حسبما يعد هو نفسه ويقول «تعالوا إلىّ يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم» (مت٢٥: ٣٤).

إن المسيح نفسه يمكن أن يكون ملكوت الله الذى نشتهى كل يوم أن يأتى، فإذ هو نفسه قيامتنا، وإذ فيه نقوم ثانية، كذلك أيضاً يمكن أن يكون هو نفسه ملكوت الله، لأننا فيه سوف نملك، ولكننا نفعل حسناً بطلبنا ملكوت الله، أى الملكوت السمائى، لأن هناك ملكوتاً أرضياً، لكن ذاك الذى حجد العالم فعلاً، ينال كرامات وملكوتاً أعظم جداً، ولذلك فإن كل من يكرس نفسه لله وللمسيح لا يطلب الملكوت الأرضى بل السمائى، ولابد من الصلاة الدائمة والتضرع لئلا نضل عن الملكوت السمائى، مثلما ضل اليهود الذين أُعطى لهم هذا الوعد أولاً كما يقول الرب نفسه «كثيرون سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الإنسان» (مت٨:١١).

بعد ذلك نصلى «**لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض**» وليس معنى هذا أن الله يجب أن يفعل ما يريد بل أن نستطيع نحن أن نفعل ما يريد الله، فمن ذا الذى يقاوم الله ولا يفعل مشيئته؟ ولكن لأن الشيطان يعيقنا عن أن نطيع مشيئة الله، بفكرنا وأعمالنا، فى سائر الأمور، لذلك نصلى ونطلب أن تكون مشيئة الله فينا، وكى تكون فينا نحتاج إلى مشيئة الله الصالحة أى معونته وحمايته، إذ ليس هناك أحد قوى بقوته الذاتية، بل الإنسان يخلص وينمو بنعمة الله ورحمته.

ولأن الرب يعرف ضعف البشرية التى لبسها، ويريد تقديم مثالاً لتلاميذه لكى لا يفعلوا مشيئتهم هم بل مشيئة الله، لذلك يقول «ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» (مت٢٦:٣٩) فإذا كان الابن مطيعاً لمشيئة أبيه، فكم

بالأحرى جداً يجب علينا نحن العبيد أن نكون مطيعين لمشيئة السيد؟ كما يحثنا يوحنا فى رسالته معلمنا إيانا أن نصنع مشيئة الله قائلاً «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم، إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب، لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة ليس من الآب بل من العالم والعالم يمضى وشهوته وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد؟» (١يو٢:١٥-١٧) فنحن الذين نريد أن نحيا إلى الأبد يجب أن نصنع إرادة الله الأبدى.

ومشيئة الله هى تلك التى عملها المسيح وعلمها: الإتضاع فى الحديث، الثبات فى الإيمان، التعفف فى الكلمات، الرحمة فى الأعمال، التلمذة فى الفضيلة، عدم القدرة على صنع الخطأ، القدرة على تحمل الخطأ عندما يحدث، حفظ السلام مع الإخوة، محبة الله بكل القلب، محبته لأنه أب ومخافته لأنه إله، عدم تفضيل أى شئ على المسيح لأنه لم يفضل أى شئ علينا، الإلتصاق بلا إنفصال بمحبته، الوقوف عند صليبه بشجاعة وإيمان عندما يكون هناك جهاد لأجل اسمه وكرامته، إظهار الثقة والإيمان الذى به نصارع فى الموت، الجلد عند التعذيب، الصبر الذى به نتكلل، أى أن نشتهى أن نكون ورثة مع المسيح، أى أن نتمم وصايا الله، أى أن نصنع مشيئة الآب.

وهكذا نطلب أن تكون مشيئة الله تامة فى السماء وعلى الأرض، فكل من هذين مرتبط بخلاصنا، فإذ لنا الجسد من الأرض والروح من السماء، نُعتبر نحن أنفسنا أرضاً وسماءً، وبالإثنين ـ أى الجسد والروح ـ نصلى لكى تكون مشيئة الله، لأن بين الجسد والروح صراعاً وحرباً، وهناك جهاد يومى

لأنهما يختلفان الواحد عن الآخر، فلا نستطيع أن نفعل تلك الأمور التى تشتهيها لأن الروح تطلب الأمور السمائية الإلهية، بينما الجسد يشتهى الأمور الأرضية والزمنية، ولذلك نطلب ونصلى لكى بمعونة ونعمة الله يحدث إتفاق بين هاتين الطبيعتين، وهذا ما يعلنه الرسول بولس بوضوح «الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون، ولكن إذا أُنقذتم بالروح فلستم تحت الناموس، وأعمال الجسد ظاهرة التى هى زنى عهارة نجاسة دعارة، عبادة الأوثان سحر عداوة خصام غيرة سخط تحزب شقاق بدعة حسد قتل سكر بطر وأمثال هذه التى أسبق فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضاً أن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله، وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف» (غلا٥ :١٧-٢٢).

لذلك نطلب فى صلواتنا اليومية بل فى تضرعاتنا الدائمة أن نتمم إرادة الله بخصوصنا فى السماء وعلى الأرض، لأن هذه هى مشيئة الله أن تفسح الأمور الأرضية مكاناً للأمور السمائية وأن نتمم الأفكار والأعمال الروحية والإلهية.

ويقدم القديس كبريانوس تفسيراً آخر لهذه الطلبة فيقول أنه طالما أن الرب يأمرنا ويوصينا أن نحب حتى أعدائنا، وأن نصلى حتى لأجل هؤلاء الذين يضطهدوننا، لذلك يجب أيضاً أن نطلب لأجل هؤلاء الذين لا يزالون أرضاً أى الذين لم يبتدئوا بعد أن يكونوا سمائيين كى حتى فى هذه الأمور نتمم مشيئة الله، كما تممها المسيح فى تجديده للبشرية، فطالما أنه لم يدعوا التلاميذ «أرض» بل «ملح الأرض»، والرسول يقول عن الإنسان الأول أنه

تراب من الأرض أما الإنسان الثانى فمن السماء لذلك نحن الذين يجب أن نشبه الله أبانا الذى يشرق شمسه على الأبرار والأشرار، ويرسل المطر على الأبرار والأشرار، نصلى من أجل خلاص الناس جميعهم، حتى أنه فى السماء ـ أى فينا نحن بإيماننا ـ تتم وتكون مشيئة الله بأن يبدأ هؤلاء الذين بحسب ميلادهم الأول أرضيين، فى أن يكونوا بميلادهم من الماء والروح سمائيين.

ثم نصلى بعد ذلك «**خبزنا كفافنا أعطنا اليوم**» وهذه الطلبة يمكن أن تُفهم روحياً وأيضاً حرفياً، لأن كلا التفسيرين غنى بالنفع الإلهى لأجل خلاصنا لأن المسيح هو خبز الحياة، وهذا الخبز ليس لجميع الناس بل لنا نحن فقط، فكما نقول «أبانا» لأنه أبو هؤلاء الذين يفهمون ويؤمنون، كذلك نقول «خبزنا» لأن المسيح هو خبز هؤلاء الذين لهم شركة وإتحاد مع جسده، ونطلب أن يُعطى لنا هذا الخبز يومياً، كى نحن الذين فى المسيح والذين ننال يومياً الإفخارستيا لغذاء الخلاص لا ننفصل عن جسد المسيح، ولا نُحرم من الشركة فى الخبز السمائى بسبب الخطايا البغيضة، كما يقول هو نفسه: «هذا هو الخبز الذى نزل من السماء، ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا، منْ يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد» (يو٦ :٥٨)، فكما أنه عندما يقول أن كل من يأكل جسده يحيا إلى الأبد، لأن كل من يشترك فى جسده ويتناول الإفخارستيا هو حى، كذلك من الناحية الأخرى يجب أن نخاف ونصلى لئلا نُمنع بسبب خطايانا من التناول وننفصل عن جسد المسيح فنظل بعيدين عن الخلاص، حسبما يقول هو نفسه محذراً «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو٦ :٥٣)،

ولهذا نطلب أن يُعطى لنا خبزنا ـ أى المسيح ـ كل يوم، وأن لا ننفصل نحن الذين نسكن ونحيا فى المسيح عن تقديسه أو عن جسده.

لكن يمكن أن تُفهم هذه الطلبة أيضاً بمعنى أننا نحن الذين جحدنا العالم والذين تركنا غناه ومباهجه بإيمان فى النعمة الروحية، يجب أن نطلب فقط طعامنا ومعونتنا لأن الرب يعلمنا ويقول «كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لو١٤ :٣٣) لكن ذاك الذى إبتدأ يكون تلميذاً للمسيح جاحداً كل الأشياء بحسب كلمة معلمه، يجب أن يطلب لأجل طعامه اليومى فقط، ولا يطلب لأجل إحتياجاته على المدى البعيد كما يعلم الرب ويقول «لا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفى اليوم شره» (مت٦ :٣٤) فتلميذ المسيح يطلب طعامه اليومى ولا يهتم بالغد، لأنه أمر متناقض أن نطلب أن نحيا طويلاً فى هذا العالم بينما نطلب أن يأتى ملكوت الله سريعاً، وهكذا أيضاً يعلمنا الرسول المبارك معطياً لنا قوة لثبات رجائنا وإيماننا فيقول «إننا لم ندخل العالم بشئ وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ، فإن كان لنا القوت والكسوة فلنكتف بهما، وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك لأن محبة المال أصل كل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة» (١تيمو٦ :٧).

فالرسول يعلمنا أن فى الغنى والثروات أصل كل الشرور لأنها تخدع عمى الذهن كما حدث مع الغنى الغبى الذى كان يتفاخر بوفرة محاصيله وأثماره «يا غبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعددتها لمن

تكون» (لو١٢ :٢٠) لأن الغنى الذى كان سيموت فى نفس الليلة، كان يفتخر مسروراً بمخازنه، ذاك الذى كانت الحياة تنزع منه، كان يفكر فى وفرة وكثرة طعامه، بينما من الناحية الأخرى علمنا الرب أن من يبيع ممتلكاته ويوزع على الفقراء ويضع لنفسه كنزاً فى السماء يصير كاملاً، ويقول أن هذا الإنسان يستطيع أن يتبعه وأن يقتدى بمجد آلامه، إذ بعد أن تحرر من المعوقات والعقبات ومنطق إحقاءه لا يعود بعد منشغلاً فى أى عمل أرضى، بل يصير حراً ويأخذ معه مقتنياته التى سبق وأرسلها إلى الله.

لأن الإنسان البار لا يمكن أن يحتاج أو يعتاز للخبز اليومى إذ هو مكتوب «الرب لا يجيع نفس البار» (أم١٠ :٣) والرب أيضاً يعد ويقول «لا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس، فإن هذه كلها تطلبها الأمم، لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم» (مت٦ :٣١)، فالله يعد بأن يعطى هؤلاء الذين يطلبون ملكوته وبره كل الأشياء، ولأن كل الأشياء ملك لله، لذلك فإن من يقتنى الله لن يحتاج لأى شئ، وهكذا أعطى دانيال طعاماً سمائياً عندما أُلقى فى الجب بحسب أمر الملك، وبالمثل إيليا فى هروبه تغذى بخدمة الغربان له فى وحدته، وبالطيور التى تجلب له الطعام أثناء إضطهاده، وهنا يتنهد القديس كبريانوس قائلاً «آه من قساوة حسد وحقد الإنسان، فالحيوانات المفترسة لا تفترس الإنسان، والطيور تطعمه، بينما الإنسان يلقى فخاخاً ويهتاج غضباً».

وبعد ذلك نتضرع لأجل خطايانا قائلين «**واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا**» فبعد طلب الطعام، نطلب مغفرة الخطايا أيضاً،

حتى يستطيع الإنسان الذى يطعمه الله أن يحيا فى الله، ولا يتغذى فقط للحياة الحاضرة بل وأيضاً للحياة الأبدية، التى يمكن أن ننالها إذا غُفرت خطايانا، وهذه يسميها ربنا ذنوب، حسبما يقول فى إنجيله «كل ذلك الدين تركته لك لإنك طلبت إلىّ» (مت١٨ :٣٢) وهنا يوضح كبريانوس أن صلاتنا لأجل مغفرة ذنوبنا إنما هى تذكرة دائمة لنا بأننا خطاة، إذ بينما نطلب المغفرة من الله، تتذكر النفس وعيها بخطاياها.

ولئلا يخدع أحد نفسه ويظن أنه بار وهكذا يهلك بتمجيد نفسه، لذلك يجب أن يتضرع لأجل خطاياه يومياً، ويوحنا يحذرنا فى رسالته قائلاً «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا، إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا» (١يو١ :٨) فجمع فى رسالته بين الإثنين: أن نتضرع لأجل خطايانا، وأننا سننال المغفرة عندما نطلب، لذلك قال أن الله أمين حتى يغفر لنا خطايانا حافظاً وعده، فلأنه علمنا أن نصلى لأجل ذنوبنا وخطايانا، لذا وعد أن ننال رحمته ومغفرته الإلهية بعد ذلك.

وقد وضع رب المجد قانوناً يلزمنا أن نطلب مغفرة ذنوبنا بنفس الطريقة التى نغفر بها نحن أيضاً للمذنبين إلينا، مدركين أن ما نطلبه من غفران لخطايانا لا يمكننا أن نناله إلا إذا سلكنا نحن أيضاً بالمثل تجاه المذنبين إلينا، لذلك يقول «بالكيل الذى تكيلون به يُكال لكم» (مت٧ :٢)، والعبد الذى لم يسامح العبد زميله حتى بعد أن ترك له سيده كل ديونه وسامحه، أُلقى فى السجن، فإذ لم يسامح العبد زميله فقد المغفرة التى أظهرها سيده نحوه، وهذه الأمور يعلمها لنا السيد المسيح قائلاً «ومتى وقفتم تصلون فاغفروا إن كان لكم على أحد شئ لكى يغفر لكم أيضاً أبوكم الذى فى السموات

زلاتكم وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذى فى السموات أيضاً زلاتكم» (مر١١ :٢٥).

ولن يكون هناك أى عذر لنا فى يوم الدينونة عندما نُدان بحسب حكمنا نحن، وسوف نجازى عن كل ما فعلناه، لأن الله يوصينا أن نكون صانعى سلام، ذوى إتفاق وفكر واحد فى بيته، وكما يهبنا هو ذلك بميلادنا الثانى، هكذا أيضاً يريدنا بعدما نولد ثانية أن نحفظ هذا، حتى نستطيع نحن الذين بدأنا نكون أبناء لله أن نثبت فى سلام الله، وإذ يكون لنا روح واحد، يكون لنا أيضاً قلب واحد وفكر واحد، فالله لا يريد أن يقبل أى شخص لا يحفظ الوحدة والسلام، بل يوصيه أن يرجع من المذبح ويذهب أولاً ويتصالح مع أخيه حتى يسر الله بصلوات صانعى السلام «فسلامنا وإتفاقنا الاخوى هو أعظم ذبيحة لله».

إذ حتى فى الذبائح التى قدمها أولاً هابيل وقايين، لم ينظر الله إلى تقدماتهما بل إلى قلبيهما، وذاك الذى قُبلت منه تقدمته، كان قلبه أيضاً مقبولاً، أى هابيل البار محب السلام الذى بتقدمته وذبيحته لله ببراءة علم الآخرين أيضاً أنه يجب عليهم عندما يحضرون تقدماتهم إلى المذبح أن يفعلوا ذلك بمخافة الله وبقلب بسيط وسلام الوحدة والإتفاق.

وبعد أن قبل الله ذبيحته صار هو نفسه فيما بعد ذبيحة لله، حتى نال ذاك الذى هو أول من نال الإستشهاد والذى إبتدأ آلام الرب بمجد دمه، بر الرب وسلامه.

مثل هؤلاء سوف يكللهم الرب وسوف ينتقم لهم فى يوم الدينونة، أما

مَنْ ليس له سلام مع إخوته، بحسب ما يعلمنا الرسول المبارك والأسفار المقدسة، فحتى لو ذُبح من أجل اسم المسيح، لا يستطيع أن ينجو من جريمة الشقاق والخلاف لأنه مكتوب «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس» (١يو٣ :١٥) وليس هناك قاتل يدخل ملكوت السموات أو يحيا مع الله، إذ لا يستطيع أن يكون مع المسيح ذاك الذى اقتدى بيهوذا وليس بالمسيح، ويقول كبريانوس: «كم بشعة هى الخطية التى لا يمكن أن تغسل حتى بمعمودية الدم، وكم رهيبة هى الجريمة التى لا يمكن التكفير عنها بالإستشهاد!!».

ويعلمنا الرب أن نصلى «**ولا تدخلنا فى تجربة**» ومن هذه الصلاة يتضح أن العدو الشرير لا يستطيع أن يفعل أى شئ ضدنا إلا إذا سمح له الله، لذلك نقدم كل مخافتنا وتكريسنا وطاعتنا للمسيح، إذ فى تجاربنا لا يستطيع الشرير أن يؤذينا إلا بسماح منه، وهذا ما توضحه الأسفار المقدسة عندما تقول «وجاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها» (٢مل٢٤ :١١) لكن الشرير يعطى قوة ضدنا بسبب خطايانا، فعندما أخطأ سليمان وحاد عن طرق الرب ووصاياه «أقام الرب خصماً لسليمان هدد الأدومى (الشيطان)» (١ملو١١ :١٤).

والله يسمح للشيطان أن يجربنا لأحد سببين: إما لتأديبنا عندما نخطئ، أو للمجد عندما نُجرب، كما حدث مع أيوب وقال الله للشيطان «هوذا كل ماله فى يدك، وإنما إليه لا تمد يدك» (أى١ :١٢) ويقول الرب كذلك فى وقت آلامه «لم يكن علىّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو١٩ :١١) وعندما نطلب ألا ندخل فى تجربة نتذكر ضعفنا الذى يجعلنا

نطلب هكذا لئلا يتفاخر أحد ويُغر بنفسه، ولئلا يظن أحد أنه قد نال مجد الاعتراف والألم، بينما الرب يعلمنا الإتضاع قائلاً «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة، أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف» (مر١٤ :٣٨).

وبعد كل هذه الطلبات، نختم الصلاة الربانية بعبارة قصيرة تلخص كل طلباتنا وهى «**ولكن نجنا من الشرير**» فهى تشمل كل الأمور المضادة التى يحاول العدو أن يحاربنا بها فى هذا العالم، والتى ستكون لنا حماية أمينة ضدها إذا نجانا الله، وإذا أعاننا نحن الذين نطلب ذلك ونتضرع لأجله، وعندما نقول «نجنا من الشرير» لا يعود هناك أى شئ بعد نطلبه أو نصلى لأجله، إذ بعدما نصلى ونطلب حماية الله من الشرير ونناله، نثبت فى إيمان وثقة ضد كل شئ يصنعه الشرير والعالم ضدنا «إذ أى خوف فى هذه الحياة للإنسان الذى حارسه فى هذه الحياة هو الله».

ويتأمل كبريانوس فى عظمة الصلاة الربانية وشموليتها، فقد جمع الله فيها كل صلواتنا فى عبارة واحدة، وربنا يسوع المسيح كلمة الله عندما جاء إلى العالم وجمع معاً المتعلم وغير المتعلم، قدم لكل جنس ولكل سن تعاليم الخلاص، فوضع خلاصة وافية لتعاليمه ومبادئه كى لا ترهق عقول من يدرسون التعليم السمائى، بل يستطيعون أن يتعلموا بسرعة كل ما هو ضرورى للإيمان البسيط، وهكذا عندما علم عن الحياة الأبدية، جمع سرها فى إختصار إلهى فقال «هذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت أيها الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته» (يو١٧ :٣).

ولم يعلمنا الرب أن نصلى بكلماته وتعاليمه الشفاهى فقط بل بالعمل،

إذ صلى هو نفسه كثيراً موضحاً بمثاله ما يليق بنا أن نفعله، كما هو مكتوب «أما هو فكان يعتزل فى البرارى ويصلى» (مت٢٢ :٤) وأيضاً «خرج إلى الجبل ليصلى وقضى الليل كله فى الصلاة لله» (لو٥ :١٦)، فإذا كان ذاك الذى بلا خطية قد صلى، كم بالأحرى جداً يجب على الخطاة أن يصلوا؟! وإذا كان قد صلى دوماً ساهراً الليل كله فى تضرعات غير منقطعة، فكم يليق بنا نحن أكثر جداً أن نسهر ليلاً فى صلاة دائمة؟!

لكن الرب صلى ولم يطلب لأجل نفسه، إذ لماذا يصلى الذى بلا خطية لأجل نفسه؟ بل طلب وصلى لأجل خطايانا كما أعلن هو نفسه عندما قال لبطرس «هوذا الشيطان قد طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك» (لو٢٢ :٣١) فهو يطلب من الآب لأجل الجميع قائلاً «لست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بى بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيضاً أيها الآب فىّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً فينا» (يو١٧ :٢٠)فعطف الله وحنانه، العظيم كرحمته، عظيم جداً فيما يخص خلاصنا، إذ لم يكتف فقط بأن يفدينا بدمه بل صلى أيضاً لأجلنا.

ثم ينتقل القديس كبريانوس إلى الحديث عن شروط الصلاة، وأول هذه هو الوحدة والسلام مع الإخوة، وهو الموضوع الذى تناوله بالتفصيل فى كتابه «وحدة الكنيسة» والذى ننشر نصه الكامل فى هذه الدراسة، ثم يقدم كبريانوس باقى شروط الصلاة، إذ يجب علينا عندما نقف للصلاة أن نكون متيقظين حارين من كل قلوبنا، حتى تعبر عنا كل الأفكار الجسدانية والدنيوية، ولا تفكر النفس فى ذلك الوقت إلا فى هدف صلواتنا، لذلك

أيضاً فإن الكاهن يمهد أذهان الإخوة للصلاة قبل البدء فيها بقوله «إرفعوا قلوبكم» كى بإجابة الشعب «هى عند الرب» يتذكر أنه هو نفسه يجب ألا يفكر إلا فى الرب.

ويجب أن ينغلق القلب أمام العدو وينفتح لله وحده، ولا يسمح لعدو الله أن يقترب منه وقت الصلاة، لأن العدو كثيراً ما ينسل داخلنا وبخدعة ماكرة يشتت صلواتنا بعيداً عن الله، حتى يكون فى قلبنا شئ وفى صوتنا شئ آخر، بينما لا يجب أن يصلى الصوت وحده، بل تصلى النفس والذهن إلى الرب ببساطة، فهو إهمال جسيم أن يكون الإنسان مشتتاً بأفكار حمقاء ودنسة بينما هو يصلى للرب، كما لو كان هناك شئ آخر يجب أن يفكر فيه غير أنه يتحدث مع الله!! وكيف يطلب الإنسان أن يسمعه الله بينما هو نفسه لا يسمع ما يطلب؟! وكيف يذكر الله الإنسان عندما يطلب إذا كان الإنسان ذاته لا يذكر نفسه؟! فهذا يعنى أنه لا يتخذ أية حيطة أو حذر ضد العدو، ويعنى أنه عندما يصلى لله إنما يسئ إلى عظمة الله وكرامته بالإهمال فى صلاته، ويعنى أنه يكون ساهراً ومتيقظاً بعينيه بينما يكون نائماً بقلبه فى حين أنه يجب على الإنسان المسيحى حتى لو كان نائماً بعينيه أن يكون مستيقظاً بقلبه، كما هو مكتوب على لسان الكنيسة فى سفر نشيد الأنشاد «أنا نائمة وقلبى مستيقظ» (نش٥ :٢) فالذين ينالون من الله ما يطلبون إنما هم هؤلاء الذين يراهم الله ساهرين ويقظين فى صلواتهم.

أيضاً هؤلاء الذين يصلون يجب ألا يقدموا لله صلوات بلا ثمر، فالتضرع يكون بلا ثمر متى كان توسلاً عقيماً يلتمس فقط من الله، لأنه كما أن كل شجرة لا تأتى بثمر تقطع وتلقى فى النار، كذلك أيضاً

الكلمات التى لا تحمل ثمراً لا يمكن أن تستحق أى شئ من الله، لأن ذاك الذى سيعطينا فى يوم الدينونة جعالة لأجل أعمالنا وصدقاتنا، هو أيضاً فى هذه الحياة مستمع رحوم لكل من يقدم إليه صلوات ممزوجة بالأعمال الصالحة، وهكذا على سبيل المثال، سمع لكرنيليوس عندما صلى لأنه كان مواظباً على أعمال الرحمة والصلاح والصدقات، ومواظباً على الصلاة دوماً، ولذلك عندما كان يصلى نحو الساعة التاسعة، ظهر له ملاك يحمل شهادة لأعماله قائلاً «يا كرنيليوس...... صلواتك وصدقاتك صعدت تذكاراً أمام الله» (أع١٠ :٢، ٤).

إن صلوات الإنسان تصعد سريعاً إلى الله عندما تتحاجج أعماله الصالحة مع الله وتلح عليه، لأن منْ يسمع ما يُوصى به الله ويطيعه يستحق أن يسمع الله له، والرسول بولس عندما ساعد إخوته، قال أن الأعمال الصالحة التى صنعت هى ذبائح لله «قد إمتلئت إذ قبلت من أبفرودتس الأشياء التى من عندكم نسيم رائحة طيبة ذبيحة مقبولة مرضية عند الله» (فى٤ :١٨) فعندما يشفق الإنسان على الفقير يُقرض الرب، ومن يعطى للمسكين يعطى للرب ذبائح روحية نسيم رائحة طيبة.

ثم يؤكد القديس كبريانوس على أهمية المواظبة على الصلاة، ويتخذ من الفتيان الثلاثة الذين كانوا مع دانيال مثالاً لذلك، فقد واظبوا على صلوات الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة، وسائر أبرار العهد القديم صلوا هكذا، ففى الساعة الثالثة حل الروح القدس على التلاميذ مكملاً ومحققاً وعد الرب، وفى الساعة السادسة، عندما صعد بطرس إلى سطح البيت ليصلى، تعلم من الرب أن يقبل الجميع إلى نعمة الخلاص بينما كان يشك قبلاً فى قبول

الأم فى المعمودية، ومن الساعة السادسة إلى التاسعة كان الرب مصلوباً ليغسل خطايانا بدمه ويفدينا.

وبجانب ساعات الصلاة التى كانت منذ القدم، تزايدت أوقات وأسرار أخرى لنا، إذ يجب أن نصلى فى الصباح كى نحتفل بقيامة البر فنصلى صلاة باكر، وهذا ما أوضحه الروح القدس سلفاً فى سفر المزامير «لأنى إليك أصلى، يا رب بالغداة تسمع صوتى، بالغداة أوجه صلاتى نحوك وانتظر» (مز٥ :٢) . وأيضاً عند الغروب وختام النهار لابد أن نصلى، فإذ المسيح هو الشمس الحقيقية والنهار الحقيقى، نصلى ونطلب عندما تغرب الشمس العالمية والنهار العالمى، أن يشرق النور علينا ثانية، ونطلب مجئ المسيح الذى سوف يهبنا نعمة النور الأبدى لأنه هو شمسنا كما تسميه المزامير وكما يشهد بذلك ملاخى «لكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها» (ملاخى٤ :٢).

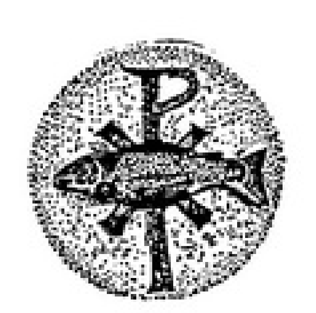
لكن إذا كان الكتاب المقدس يعلمنا أن المسيح هو الشمس الحقيقية والنهار الحقيقى، إذاً يجب ألا تكون هناك ساعة يكف فيها المسيحيون عن الصلاة إليه، حتى نظل نحن الذين لنا الشمس الحقيقية والنهار الحقيقى فى صلاة طوال الليل كله، وعندما يحل الليل لا يكون هناك أى ضرر من ظلام الليل لهؤلاء الذين يصلون، لأن أبناء النور لهم نهار حتى فى الليل، إذ متى يكون بدون نور ذاك الذى يسكن النور فى قلبه؟ أو متى يكون بدون شمس ونهار ذاك الذى المسيح شمسه ونهاره؟

ويقول كبريانوس: «يجب ألا ننقطع عن الصلاة، نحن الذين فى المسيح،

أى فى النور دائماً، لأن الأرملة نالت مرضاة الله بصلواتها وتضرعاتها وسهرها الدائم كما هو مكتوب «لا تفارق الهيكل عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً» (لو٢ :٣٧)».

ويختتم القديس كبريانوس كتابه بنصيحة لنا:

«فليكن الليل نهاراً لنا نحن الذين نحيا دوماً فى نور الرب، والذين نتذكر ونثبت فيما بدأنا بالنعمة أن نكونه، فلنؤمن أننا نسير دوماً فى النهار، ولا يعوقنا الظلام الذى هربنا منه، فلنحرص أن نصلى فى ساعات الليل لئلا تكون هناك إضاعة باطلة لأوقات الصلاة، وإذ نحن مخلوقين ثانية ومولودين من جديد بالروح بنعمة الله، فلنقتدى بما سوف نكونه يوماً ما، ولأنه فى الأبدية سيكون لنا نهار فقط بدون أى ليل، لذلك فلنسهر هكذا فى الليل كما لو كنا فى نور النهار، وإذ يجب علينا أن نصلى ونشكر الله إلى الأبد، لذلك يجب علينا ألا ننقطع فى هذه الحياة أيضاً عن الصلاة والشكر».



عرض لكتاب

المرتد

On The Lapsed

كان القديس كبريانوس قد وعد مراراً أنه سوف يكتب موضوعاً محدداً عن المرتدين متى حل السلام فى الكنيسة وانتهى الإضطهاد، وبهذا الكتاب أوفى بوعده.

يبدأ القديس كبريانوس كتابه بالتهليل والفرح لعودة السلام إلى الكنيسة، فرغم أنه كان صعباً للشكاكين، ومستحيلاً للخائنين، إلا أنه بالإيمان بالمعونة والمجازاة الإلهية عاد السلام إلى الكنيسة ثانية، وبعد أن انقضى الصيف والسحب، أشرق الهدوء والطمأنينة مرة ثانية، لذلك لابد من تقديم التسابيح والتماجيد لله، ويجب شكره على عطاياه وهباته، بالرغم من أنه حتى فى زمان الإضطهاد لا يكف صوت المؤمنين عن شكره، إذ لا يستطيع أحد ولا حتى العدو أن يمنعنا ـ نحن الذين نحب الرب بكل قوتنا وحياتنا وقوتنا ـ من التحدث ببركاته وتسابيحه دوماً وفى كل مكان.

ثم ينتقل كبريانوس إلى مدح المعترفين العظماء الذين لهم الاسم الحسن شارة نبالة، ويخاطبهم كبريانوس قائلاً «لقد قاومتم العالم بشجاعة، لقد قدمتم مشهداً مجيداً فى عينى الله، لقد كنتم مثالاً لإخوتكم الذين سوف يتبعونه، هذا الصوت ذكر اسم المسيح وإعترف أنه يؤمن به، هذه

الأيادى العظيمة، المعتادة فقط على الأعمال الإلهية، قاومت الذبائح الدنسة...... رؤوسكم ظلت حرة من الغطاء الشرير الردئ الذى به تتغطى رؤوس هؤلاء الذين ذبحوا للأوثان..... جبهتكم النقية بعلامة الله لم تستطع أن تحتمل إكليل الشيطان بل حفظت نفسها لإكليل الرب. كم بفرح تأخذكم أمكم الكنيسة فى حضنها عندما ترجعون من المعركة!!... ومع الرجال المنتصرون جاءت النساء أيضاً اللائى بينما كن يصارعن العالم، غلبهن ضعف جنسهن، والعذارى أيضاً جئن بالمجد المضاعف الذى لربهن، وكذلك الفتيان الذين فاقوا أعمارهم».

فلأنهم مؤسسون على الأسس والجذور الثابتة التى للتعاليم الإلهية، ومتقويين بالتقاليد الإنجيلية، لم ترهبهم العقوبات الموضوعة، ولا العذابات المحددة، ولا فقدان الثروة، ولا العقوبات الجسدية.

وكل من لم يعترف فى يوم الإنكار أنه ليس مسيحياً، فقد اعترف أنه مسيحياً، فالدرجة الأولى للنصر هى أن نعترف بالرب وسط عنف وتعذيبات الأمم، بينما الدرجة الثانية من المجد هى أن نهرب بحذر وأن نكون محفوظين للرب. الأمر الأول عام للجميع، والثانى هو اعتراف شخصى خاص. الأول يهزم قضاة هذا العالم، والثانى يفرح بالله كقاضى وديان له، ويحفظ ضميره طاهراً فى كمال القلب.

الأول، بينما اقتربت ساعته، وُجد كاملاً ناضجاً فعلاً، والثانى ربما يكون قد تأخر، لكنه إذ ترك ضيعته، هرب زماناً يسيراً لكى لن ينكر، لكن بالتأكيد سوف يعترف إذا قبض عليه هو الآخر.

ووسط أكاليل الشهداء السمائية هذه، وهذه الإعترافات الروحية المجيدة، وهذه الفضائل العظيمة جداً التى للإخوة الذين ثبتوا، مزق العنف المضاد جزءً من أحشاء الكنيسة.

ويتساءل القديس كبريانوس ما عساه يفعل فى هذا الأمر؟ كيف يتكلم وماذا يقول؟ فهو يحتاج إلى الدموع بدل الكلمات ليعبر عن الحزن الذى سببه الجرح الذى أصاب الجسد، لأنه لابد أن ننوح على الكثيرين الذين ارتدوا، إذ من ذا الذى قلبه قاس متحجر حتى لا يتذكر المحبة الأخوية ويقف مشاهداً لهلاك أصدقائه وعيناه جافتان ؟

فكبريانوس يحزن مع الإخوة لأن الراعى هو الذى يُجرح متى أصيب القطيع، فهو يشارك بقلبه مع كل أحد، ويشترك فى حمل نير الأنين والحزن، يبكى مع الباكين وينتحب مع الناحبين، وعندما يضرب المؤمنون بسهام العدو الغاضب، تجتاز سيوفه القاسية أحشاءه.

لكن إذا عُرف سبب الفاجعة، يمكن فى الحال إيجاد علاج للجرح، وقد أراد الله لعائلته أن تُختبر. ولأن السلام الطويل قد أضر التلمذة التى سُلمت إلينا إلهياً، لذلك جاء التوبيخ الإلهى موقظاً لإيماننا، ورغم أننا نستحق أكثر بسبب خطايانا، إلا أن الرب الرحيم جعل جميع الأشياء معقولة حتى أن كل ما حدث يبدو كتجربة أكثر منه إضطهاداً.

لقد كان كل واحد يريد زيادة ثروته وغناه ناسياً ما فعله المؤمنون والإخوة قبلاً فى زمان الرسل، أو بالأحرى ما يجب عليهم دوماً ن يفعلوا ، فكرسوا أنفسهم لزيادة ثرواتهم، وبين الكهنة لم يكن هناك إخلاص للديانة، وبين

الخدام لم يكن هناك إيمان سليم، فى أعمالهم لم توجد رحمة، فى سلوكياتهم وطرقهم لم توجد تلمذة.

الرجال كانت ذقونهم مشوهة، والنساء كانت بشرتهن مصبوغة وعيونهن زائغة ومختلفة عما جبلته يد الله، وشعورهن مصبوغة، واتحدوا فى زواج مع غير المؤمنين، وجعلوا أعضاء المسيح زانية للأمم. إنهم يحلفون ليس فقط بإندفاع وتهور، بل أيضاً يحلفون كذباً، ويتحدثون بالشر عن بعضهم البعض بلسان مسموم، ويتشاجرون مع بعضهم بكراهية.

ويشرح كبريانوس أنه بسبب كل هذه الخطايا وغيرها، استحق المؤمنون أن يتألموا إذ قد سبق التوبيخ الإلهى وحذر «إن ترك بنوه شريعتى ولم يسلكوا بأحكامى، إن نقضوا فرائضى ولم يحفظوا وصاياى، افتقد بعصا معصيتهم وبضربات إثمهم» (مز٨٩: ٣٠).

هذه الأمور قد أُعلنت لنا قبلاً وتحدثت النبوات عنها سلفاً، لكننا إذ نسينا الناموس والطاعة الواجبة منا، صنعنا خطايانا، حتى أننا فيما نحتقر وصايا الرب، وضعت لنا أدوية أصعب وأقسى لنتوب عن خطايانا وليُمتحن إيماننا.

إلا أنه ليس فينا بعد مخافة الرب حتى نحتمل بصبر وشجاعة هذا التقويم والتأديب الإلهى، فعلى الفور بعد الكلمات الأولى من العدو المهدد، خان عدد كبير من الإخوة إيمانهم وسقطوا، ليس بسبب بداية الإضطهاد، بل هم الذين ألقوا بأنفسهم فى الإرتداد بإرادتهم.

يا له من أمر لم يُسمع به قط من قبل! يا له من أمر جديد! أنه كما لو

كان بسبب حدوث أمور غير معروفة وغير متوقعة، تُترك وصايا المسيح بسرعة؟ ألم يخبرنا الأنبياء والرسل بعدهم أيضاً عن هذه الأمور؟ فإذ كانوا مملوئين من الروح القدس، تنبأوا عن ضيقات وأحزان البار، وتعديات الوثنيين الدائمة؟ ألا تخبرنا الأسفار المقدسة التى تقوى وتثبت إيماننا دوماً، نحن خدام الله، بصوت سمائى وتقول «الرب إلهك تتقى وإياه تعبد» (تث٦: ١٣) ألا تعلن الغضب الإلهى وتحذر من العقاب عندما تقول «يسجدون لعمل أيديهم لما صنعته أصابعهم، وينخفض الإنسان وينطرح الرجل فلا تغفر لهم» (أش٢: ٨، ٩). والرب أيضاً يتكلم ويقول «من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك» (خر٢٢: ٢٠).

وفى الإنجيل أيضاً، الرب الذى علمنا بكلماته وتمم بأعماله، معلماً إيانا ما الذى يجب أن نفعله، أخبرنا قبلاً عما يحدث الآن وما سوف يحدث. ألم يرسم مجازاة أبدية لمن ينكر، وجعالات عظيمة لمن اعترفوا به؟!!

ولكن البعض نسوا هذه الأمور ولم ينتظروا أن يقبضوا عليهم أو يُسألوا قبل أن ينكروا. فكثيرون هُزموا قبل المعركة وسجدوا قبل الهجوم. لقد أسرعوا إلى السوق بإرادتهم، أسرعوا إلى الموت بحريتهم، كما لو كانوا يشتهونه قبلاً، كما لو أنه قد أُتيحت لهم الآن فرصة كانوا يشتهونها دوماً، بينما كان يُقبض على كثيرين فى المساء، وكثيرون طلبوا ألا يتأخر إستشهادهم !! لا يوجد عذر لهؤلاء كأن يقولوا أنه ارتدوا بسبب الألم أو العذابات. كيف يكفر عن جريمته ذاك الذى جلب على نفسه الهلاك عندما ذهب بإرادته إلى هيكل جوبيتر (فى روما)؟ هل يمكن لخادم المسيح أن يقف هناك ويجحد المسيح بينما قد جحد الشيطان والعالم فعلاً؟ إن

المذبح الوثنى الذى يقترب منه المرتد لهلاكه ما هو بالنسبة له إلا المحرقة التى تحرق عليها الجثث.

ويخاطب المرتدين سائلاً إياهم: لماذا أحضرتم أيها البائسون ذبائح؟ لماذا تقدمون ضحية؟ لقد أتيتم أنتم أنفسكم إلى المذبح كتقدمة، لقد صرتم أنتم أنفسكم ضحية، فهناك يقتل خلاصكم، رجاؤكم، هناك أحرقتم إيمانكم فى هذه النيران المميتة.

لكن كثيرين لم يكتفوا بهلك أنفسهم فقط، بل بإلحاح وحث متبادل كانوا يدفعون بعضهم البعض إلى هلاكهم، بل وحتى الأطفال الرضع أو الصغار، أخذهم والديهم معهم وفقدوا ما قد ربحوه بالمعمودية. ألن يقول هؤلاء الأطفال فى يوم الدينونة «إننا لم نفعل شيئاً، إننا لم نترك قربان وكأس الرب لنسرع بإرادتنا إلى فعل دنس، بل عدم إيمان الآخرين هو الذى أهلكنا، لقد وجدنا أن أباءنا هم قاتلونا، لقد أنكروا علينا أن تكون الكنيسة أمنا، لقد أنكروا علينا الله كآب لنا، لذلك، عندما كنا صغاراً، غير واعين بهذه الجريمة، جعلنا الآخرون نشترك فى الشر؟».

ويؤكد كبريانوس أنه ليس هناك من سبب لهذه الجريمة الفظيعة، وإذا كان يجب على هذا الإنسان أن يترك بلده، وإذا كان يجب أن يتألم من فقدان ثروته، فهذا هو الحال أيضاً مع منْ يولد ويموت، إذ لابد أنه سيترك بلده فى وقت ما ويتألم من فقدان ثروته.

لكن يجب ألا نترك المسيح، ولنخشى من فقدان الخلاص والمنزل الأبدى، فالروح القدس يصرخ بالنبى ويقول «اعتزلوا اعتزلوا اخرجوا من

هناك لا تمسوا نجساً، اخرجوا من وسطها، تطهروا يا حاملى آنية الرب» (أش٥٢:١١). إلا أن هؤلاء الذين هم آنية للرب وهياكل لله لم يخرجوا من الوسط !! ولم يرحلوا حتى لا يُرغموا على أن يمسوا الأشياء الدنسة، أو أن يُرغموا على أن يتلوثوا ويفسدوا بالطعام القاتل المميت!! وفى موضع آخر يقول صوت من السماء محذراً مما سيحدث لخدام الله: «اخرجوا منها يا شعبى لئلا تشتركوا فى خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها». فمنْ يخرج ويرحل لا يصير شريكاً فى الخطية، لكن من يوجد شريكاً فيها سوف يأخذ من الضربات.

لذلك يوصينا الرب فى الإضطهاد أن نرحل ونهرب، وقد علمنا أن نعمل ذلك، وعمله هو نفسه، إذ كما أن الإكليل يعطى بتعاطف وتنازل من الله ولا يمكن أن يأخذه أحد إلا عندما تأتى ساعته، كذلك كل من هو ثابت فى المسيح ويهرب قليلاً لا ينكر إيمانه، بل ينتظر زماناً، لكن من سقط، بعد أن رفض أن يهرب، فهو لم يهرب وانتظر لكى ينكره.

إن محبة الممتلكات قد خدعت الكثيرين، ولا يمكن لذلك الذى تقيده ممتلكاته كسلسلة أن يهرب، فهذه المقتنيات هى الرباطات التى تربطهم وتعوقهم عن الهرب، هى القيود التى بها تتأخر فضائلهم ويثقل على إيمانهم، وتقيد روحهم، وتعاق نفوسهم، حتى يصير هؤلاء الغارقون فى الأمور الأرضية غنيمة وطعاماً للحية التى بحسب حكم اله تتغذى على الأرض، ولذلك يحذرنا الرب معلم الصالحات لأجل المستقبل ويقول «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى» (مت١٩:٢١). فلو كان الأغنياء قد صنعوا هكذا

لما هلكوا بغناهم، لو كانوا وضعوا كنزاً فى السماء، لما كان لهم الآن عدو شيطانى يهاجمهم.

إن القلب والعقل والمشاعر يكونون جميعاً فى السماء متى كان الكنز فى السماء، ولا يمكن أن ينهزم من العالم ذاك الذى ليس شئ فى العالم يمكن أن يهزم به، بل يتبع الرب بحرية وسعة كما فعل الرسل وكثيرون فى أيامهم، وكثيرون من الذين تركوا ذويهم وممتلكاتهم وإلتصقوا بالمسيح برباطات لا تنفصم.

لكن كيف لهؤلاء المقيدين والمكبلين برباط ثروتهم وغناهم أن يتبعوا المسيح؟ أو كيف لهؤلاء المثقلين بالشهوات الأرضية أن يطلبوا السماء ويتسلقوا القمم العالية الشاهقة؟

إنهم يعتقدون أنهم يمتلكون بينما هم بالأحرى ممتلكون، وليسوا سادة على أموالهم، بل بالاحرى عبيد مقيدون لمالهم، وقد تحدث الرسول عن هذه الأزمنة وهؤلاء الناس عندما يقول «أما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك، لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة» (١تيمو٦ :٩).

لكن بأى جعالات يدعونا الرب لإحتقار غنى هذا العالم؟ بأى مكافأت يعوض عن الخسائر الضئيلة التافهة فى هذا العالم؟ يقول «ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو إمرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلى أو لأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مئة ضعف الآن فى هذا الزمان بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وحقولاً مع إضطهادات وفى الدهر الآتى الحياة

الأبدية» (مر١٠ :٢٩).

فإذا عرفنا هذه الأمور، ليس فقط لن نخشى من أى خسارة من هذا النوع، بل أننا حتى نشتهيها كما يعلن الرب نفسه قائلاً «طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم واخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الانسان، إفرحوا وتهللوا فهوذا أجركم عظيم فى السماء» (لو٦ :٢٢).

ويستنكر القديس كبريانوس قول هؤلاء المرتدين بأنهم قد تعرضوا لعذابات وآلام رهيبة قاسية!!

إذ يمكن أن يشتكى من العذابات منْ هزمته العذابات، ويمكن أن يقدم عذر الآلامات منْ هُزم فى الآلامات، مثل هذا يمكن أن يطلب قائلاً «إنى أردت فعلاً أن أجاهد بشجاعة، وإذ تذكرت نذرى أخذت أسلحة التكريس والإيمان، لكن بينما كنت أجاهد، هزمتنى العذابات المتنوعة والآلام الطويلة المستمرة. لقد ظل ذهنى ثابتاً وإيمانى قوياً، وجاهدت نفسى طويلاً دون أن تتزعزع بآلام العذابات، لكن عندما أُرهقت تماماً بالوحشية والبربرية المتجددة التى للجلاد البالغ القسوة، عندما كانت السياط تمزقنى، والعِصى تصيبنى بالرضوض والكدمات ، والمخلعة (أداة تعذيب قديمة كان يمطى عليها الجسم) تعتصرنى، والمخالب تنغرس فىّ، والنيران تشوينى، تخلى عنى جسدى فى الجهاد، واستسلم ضعف هيئتى الجسدية ـ ليس ذهنى بل جسدى ـ فى الألم».

مثل هذا التوسل يمكن أن ينال المغفرة والصفح، ودفاع من هذا النوع يمكن أن يثير الشفقة والعطف. وهكذا بينما هزموا فى المعركة الأولى، أُعطى لهم أنتصار فى الثانية و لذلك فإن هؤلاء الذين إستسلموا قبلاً

للنيران، صاروا أقوى من النيران، وفى نفس الشئ الذى قد هُزموا فيه، صاروا غالبين.

لقد توسلوا ليس لأجل شفقة على دموعهم بل على جراحاتهم، ليس بصوت حزين نادم فقط، بل بتهرأ أجسادهم وألامها، لقد فاض الدم بدلاً من الدمع، وبدلاً من الدموع، إنسكب دم متخثر من أحشائهم المحترقة.

لكن أى جروح يمكن أن يظهرها هؤلاء المهزومون المرتدون؟ أى عذابات أو آلامات ؟ وهنا يؤكد القديس كبريانوس على أن كون المجرم قد إرتكب جريمته مرغماً لا يبرأه منها، طالما أنها تُرتكب بإرادة حرة، ولكنه لا يقول هذا ليثقل على الإخوة، بل لكى يدفعهم ويحثهم ليصلوا طلباً للصفح والمغفرة كما هو مكتوب « مرشدوك مضلون... ويبلعون طريق مسالكك» (أش٣ :١٢) لأن منْ يهدئ ويعزى الخاطئ بكلمات متملقة إنما يمهد الدافع للخطية، ولا يوبخه بل يغذى وينمى خطأه، لكن منْ يوبخ بنصائح فى نفس الوقت الذى يعلم فيه أخاه، يحثه على خلاصه لأن الرب يقول «إنى كل منْ أحبه أوبخه وأؤدبه» (رؤ٣ :١٩).

وهكذا يليق بكاهن الرب ألا ينخدع بالمظاهر الكاذبة بل أن يقدم أدوية مخلصة، وأنه لطبيب غير ماهر ذاك الذى يعالج أطراف الجروح بأيد حانية ويغلق على السم فى عمق جروح الجسد وبذا يزيده، بل يجب أن يُفتح الجرح ويقطع ويشفى بقطع الأعضاء الفاسدة، ورغم أن المريض يمكن أن يصرخ أو يصيح وربما يشتكى فى عدم صبره على الألم، لكنه فيما بعد سيشكر الطبيب عندما يشعر أنه شُفى.

ويستنكر القديس كبريانوس ما فعله البعض من قبول للمرتدين فى شركة الكنيسة تحت إدعاء الرحمة، لأن هذا مخالف لتعليم الإنجيل وشريعة الرب، وهذا السلام الممنوح لهم ما هو إلا سلام كذب، فهؤلاء (يتحدث هنا عن نوفاتيان) لا يسألونهم الصبر اللازم للشفاء ولا الدواء الحقيقى، فالتوبة تبتعد عن قلوبهم وكذلك تذكار خطيتهم. لقد عادوا من مذابح الشيطان واقتربوا من موضع الرب المقدس رغم أن الكتاب المقدس يرفض هذا «أما النفس التى تأكل لحماً من ذبيحة السلامة التى للرب ونجاستها عليها فتُقطع تلك النفس من شعبها» (لا ٧ :٢٠) وكذلك يقول الرسول بولس «لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين، لا تقدرو أن تشتركوا فى مائدة الرب وفى مائدة الشياطين» (١كو١٠ :٢١) وهو يحذر من يعاند ويرفضه قائلاً «أى من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون إستحقاق يكون مجرماً فى جسد الرب ودمه» (١كو١١ :٢٧).

لكن كل هذه التحذيرات قد وجدت منهم إحتقاراً، فقبل أن يعترفوا بخطيتهم ويكفرون عنها، قبل أن يتطهر ضميرهم بذبيحة وبيد الكاهن، قبل أن يرضوا الرب الذى أساؤا إليه، أخذوا يسيئون إلى جسد الرب ودمه.

والتساهل هكذا مع المرتدين لا يهب الشركة بل يعيق الخلاص، فهو إضطهاد آخر وتجربة أخرى لا يزال العدو ينقض بها على المرتدين، مهاجماً إياهم بفساد خفى، حتى يهدأ من حزنهم وتألمهم على خطيتهم، حتى ينسون تذكر خطاياهم، حتى يسكت أنين قلوبهم، حتى تجف دموع عيونهم، رغم أنه مكتوب «فاذكر من أين سقطت وتب» (رؤ٢ :٥).

فيجب ألا يخدع أحد نفسه، لأن الرب وحده هو الذى يرحم، هو وحده

الذى يهب الصفح عن الخطايا التى أُرتكبت ضده، هو الذى حمل خطايانا، الذى حزن لأجلنا، الذى بذل نفسه عن خطايانا، والإنسان لا يمكن أن يكون أعظم من الله، ولا يمكن لعبد أن يكفر عما ارتكبه بخطية أعظم ضد الرب، لئلا تضاف هذه إلى خطية الشخص المرتد إذا كان يجهل ما قد أُعلن «ملعون الرجل الذى يتكل على الإنسان» (أر١٧ :٥) لابد أن نطلب من الرب ونرضيه بتوبتنا لأنه قال أن من ينكره أمام الناس ينكره هو أمام ملائكة أبيه الذى فى السموات.

ثم يتعرض القديس كبريانوس للرسائل التى كان المعترفون والشهداء قبل إستشهادهم يرسلونها للكنيسة طلباً للصفح عن المرتدين، ويعلق على ذلك بقوله أنه لايمكن الإستجابة إلى طلبات المعترفين والشهداء إلا إذا كانت صحيحة وقانونية، وغير مخالفة لوصايا الرب.

لأن موسى أيضاً طلب لأجل خطايا شعبه، ومع ذلك عندما طلب الصفح لأجل هؤلاء الخطاة لم ينله وقال «آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن إن غفرت خطيتهم، وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت، فقال الرب لموسى من أخطأ إلىّ أمحوه من كتابى» (خر٣٢ :٣١). فرغم أنه صديق الله الذى تكلم وجهاً لوجه مع الله، لم يستطع أن ينال ما قد طلبه، ولا استطاع أن يهدئ غضب الله بتوسله.

أما أرميا فقد امتدحه الله «قبلما صورتك فى البطن عرفتك، وقبلما أخرجتك من الرحم قدستك، جعلتك نبياً للشعوب» (أر١ :٥) ولكن عندما تضرع كثيراً وطلب لأجل خطايا الشعب قال له الله «وأنت فلا تصلى

لأجل هذا الشعب ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلوة ولا تلح علىّ لأنى لا أسمعك» (أر٧ :١٦).

لكن منْ كان باراً أكثر من نوح الذى عندما إمتلئت الأرض بالإثم وُجد هو وحده باراً؟ من أكثر من دانيال الذى كان أكثر قوة للإستشهاد فى ثبات الإيمان؟ من كان أكثر إستعداداً فى الأعمال الصالحة من أيوب؟ من أشجع فى التجارب، أكثر صبراً فى الآلامات، أكثر خضوعاً فى المخافة، أكثر صدقاً فى الإيمان منه؟ ومع ذلك قال الله أنه لن يمنحهم إذا طلبوا، فعندما توسل إليه حزقيال النبى لأجل خطايا الشعب قال «إن أخطأت إلىّ أرض وخانت خيانة فمددت يدى عليها وكسرت لها قوام الخبز وأرسلت عليها الجوع وقطعت من الإنسان والحيوان، وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وأيوب، فإنهم إنما يخلصون أنفسهم» (حز١٤ :١٣).

يقول الرب فى الإنجيل «كل من اعترف بى قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله، ومن أنكرنى قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله» (لو١٢ :٨). فإذا كان لا ينكر من ينكره ولا يعترف بمن يعترف به، لا يكون الإنجيل صحيحاً، إذ لا يمكن أن يكون صحيحاً فى جزء ومتذبذباً فى جزء آخر، فإما أن يكون كلا الأمران صحيحاً أو كلاهما خطأ، فإذا كان من ينكره غير مذنب بجريمة، فلابد كذلك أن من سيعترف به لن ينال جعالة الفضيلة، لكن إذا كان الإيمان الذى انتصر يكلل، فبالضرورة أيضاً يعاقب عدم الإيمان الذى هزم.

ولكن يجب ألا يقلل أحد من كرامة ومجد الشهداء وإكليلهم، فقوة إيمانهم غير الفاسدة تظل صحيحة، ولا يمكن لذاك الذى رجاؤه وإيمانه

وفضيلته ومجده كله فى المسيح أن يطلب أى شئ ضد المسيح. وهنا ينبه كبريانوس إلى أن الشهداء لا يمكن أن يكونوا مصدر سلطان *Authority* للأسقف لكى يفعل أى شئ مخالف لوصية الله، إذ هم أنفسهم قد تمموا وصية الله.

ثم يورد القديس كبريانوس العديد من الأمثلة لمنْ أنكروا المسيح ويوضح العقوبات الإلهية التى حلت بهم بسبب إنكارهم للاسم الحسن، فأحدهم فقد النطق بعد أن جحد المسيح، وواحدة أخرى تسلطت عليها روح نجس، ويروى قصة طفلة صغيرة معمدة أخذتها مربيتها وأطعمتها خبزاً ممزوجاً بخمر مما تبقى من تقدمات الآلهة، وفيما بعد عندما عاد والداها وحاولا أن يناولاها من الأسرار الإلهية كانت ترفض بشدة، وعندما ناولها الكاهن والشماس بالقوة، تقيأت جسد الرب ودمه، ففى الجسد الدنس لا يمكن أن تبقى الإفخارستيا، إذ عظيمة للغاية هى قوة الرب وعظيم للغاية هو جلاله.

ثم يتعرض كبريانوس لفئة أخرى من المؤمنين ممتدحاً إياها، أى هؤلاء المؤمنين الذين رغم أنهم لم يخطئوا ولم يقدموا للأوثان، لكن لمجرد أنهم فكروا فى هذه الأمور، يعترفون بحزن وبساطة بذلك لكهنة الله، ويطلبون العلاج حتى للجراحات البسيطة الضئيلة عالمين أن الله لا يمكن خداعه.

ويتوسل كبريانوس إلى الإخوة أن يعترف كل واحد بخطيته بينما لا يزال فى العالم، بينما لايزال من الممكن قبول اعترافه، بينما لا يزال الصفح والمغفرة بيد الكاهن مرضية لله.

ويدعونا كبريانوس لنتجه بقلوبنا إلى الله ونعبر عن توبتنا عن خطايانا

بحزن صادق، ولنتضرع أمام مراحم الرب. فلتنحنى النفس أمامه، وليكن رجاؤنا فيه، وهو نفسه يخبرنا عن الطريقة التى يجب أن نسأل بها «أرجعوا إلىّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح، ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم» (يوئيل٢ :١٢).

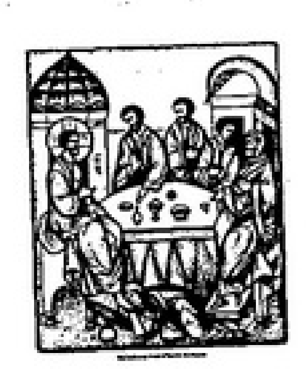
ويروى قصة الفتية الثلاثة الذين وسط آتون النار الملتهبة لم يتوقفوا عن الإعتراف العلنى بالله، ودانيال أيضاً، بعد النعمة الغزيرة التى لإيمانه وبراءته، جاهد فى أصوام أكثر ليوجد مرضياً لله ولبس مسوحاً ورماداً.

ويسأل كبريانوس المرتدين أن يفحصوا أنفسهم وذواتهم وضمائرهم، وأن يفتحوا عيون قلوبهم لفهم خطيتهم، لكن دون أن ييأسوا من رحمة الله ولا أن يخدعوا أنفسهم بأنهم قد نالوا عفوه فى الحال، وبمقدار عظم الخطأ يجب أن يكون عظم الحزن، فللجرح العميق لابد من فترة علاج طويلة، ولذلك يجب ألا تكون التوبة أقل من الخطية، ويجب أن يصلوا بحرارة وإشتياق ويتوسلوا، ويجب أن يقضوا يومهم فى نحيب وحزن، ويقضوا لياليهم فى أسهار وبكاء. ويدعوهم لأن يشغلوا أوقاتهم بالنحيب، وأن يلتصقوا بالرماد ويلبسوا المسوح بعد أن فقدوا ثوب المسيح.

ولابد لهم من الصوم بعد أن أكلوا لحم الشيطان، ويجب أن يهتموا بالأعمال الصالحة التى بها يتطهرون من الخطية، وكذا أن يبتعدوا عن الثروة كعدو ويهربوا منها كلص.

ويختتم القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة الشهيد كتابه بقوله:

«لو قدم الإنسان صلاة بكل قلبه،
لو ندم وناح بصدق وبدموع قلبه،
لو توسل للرب ليغفر خطيته بأعماله البارة الدائمة،
يمكن أن يشفق عليه
ذاك الذى أظهر رحمته بهذه الكلمات
«بالرجوع والسكون تخلصون،
بالهدوء والطمأنينة تكون قوتكم» (أش ٣٠:١٥)
وأيضاً «إنى لا أسر بموت الشرير
بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حز٣٣:١١)
ويوئيل النبى يعلن رحمة الله:
«ارجعوا إلىّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح،
ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم
لأنه رؤوف رحيم بطئ الغضب وكثير الرأفة
ويندم على الشر» (يوئيل٢ :١٣).



عرض لكتاب

الأعمال والصدقات

On Works and Alms

يستهل القديس كبريانوس كتابه بقوله:

«كثيرة وعظيمة هى البركات ـ أيها الإخوة الأحباء ـ التى وُهبت وتُوهب لنا دوماً بسبب خلاصنا بالرحمة غير المحدودة التى لله الآبِ والمسيح، فقد أرسلِ الآب الابن لكى ينقذنا ويخلصنا ويعطينا الحياة، وسر الابن بإرساله وبأن يدعى ابن الإنسان كى يجعلنا أبناء لله. لقد إتضع ليرفع شعباً مخزياً، وجرح ليشفى جراحاتنا، صار عبداً ليحرر هؤلاء الذين كانوا عبيداً، إجتاز الموت لكى يهب الحياة الأبدية للفانيين... هذا هو مقدار وعظمة عطايا الحب الإلهى».

ثم يبدأ يشرح كيف أن عناية الله ومحبته لم تُعرف كلها بعد، لأن الله يهتم أيضاً بحفظ الإنسان فى بركات وعطايا الفداء، إذ عندما شفى الرب بمجيئه جراحات آدم وعالج عضة الحية القديمة، أعطى وصية للإنسان الذى شُفى وأوصاه ألا يخطئ بعد لئلا يكون له أشر (انظر يو٥ :١٤)، لكن هذه الوصية بالتحرر من الخطية تضعنا فى موقف صعب للغاية، فبسبب ضعف وحماقة الإرادة البشرية كنا سنحتار ونرتبك لو لم يكن الحب الإلهى قد أسرع لمعونتنا مرة أخرى، وعلمنا أعمال العدل والرحمة التى بها نحفظ

خلاصنا، أى أنه بالعطاء والصدقة نستطيع إن نغسل أى قذارة نجلبها على أنفسنا.

وهنا يبدأ أسقف قرطاجنة فى شرح تعليم الكتاب المقدس عن أهمية الصدقة وأعمال الرحمة فى مغفرة الخطايا، ويستشهد بما يقوله الروح القدس فى الأمثال «بالرحمة والحق يستر الإثم» (أم١٦ :٦) ولا يمكن أن يكون المقصود بهذه الآية الآثام التى ارتكبت قبل فدائنا، لأن هذه الآثام تطهرت وغسلت بدم المسيح وتقديسه، والروح القدس يقول مرة أخرى «مثلما تطفئ المياه النيران، كذلك تطفأ الصدقة الخطايا» (جا٣ :٣٠) وهنا يعلق كبريانوس على هذه الآية بقوله «كما أن المياه المخلصة فى المعمودية تطفئ نيران جهنم، كذلك الصدقات والأعمال الصالحة تطفئ لهيب خطايانا، وكما أن مغفرة الخطايا تتم مرة واحدة فقط فى المعمودية، كذلك أعمال الرحمة الدائمة تقوم بعمل شبيه بالمعمودية لأنها تمنحنا رحمة الله مرة أخرى».

ويستطرد كبريانوس قائلاً أن الرب قد علم بهذا فى الإنجيل أيضاً، فعندما كان هناك من يتعجب من أن التلاميذ يأكلون دون أن يغسلوا أياديهم، أجاب «الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضاً، بل اعطوا ما عندكم صدقة فهوذا كل شئ يكون نقياً لكم» (لو١١ :٤٠-٤١) وبذا علمنا بوضوح أنه ليست اليدان هما اللتان تحتاجان إلى غسيل بل القلب، ليس الخارج الذى يحتاج إلى تطهير بل الداخل، والإنسان الذى نقى الداخل قد نقى الخارج أيضاً، فمنْ له ذهن نقى، له بالمثل جسد نقى، وبعد ذلك أوضح الرب كيف يمكن أن يكون الداخل نقياً، فأوصانا أن نعطى ما عندنا صدقة

«الرحيم يعلمنا أن تصنع أعمال الرحمة، ولأنه يريد أن يخلص هؤلاء الذين فداهم بثمن عظيم جداً، لذا يعلمنا كيف نغتسل مرة أخرى لو إتسخنا بعد نوالنا نعمة المعمودية».

ويحثنا كبريانوس على إدراك أهمية هذه العطية التى منحتها لنا الرحمة الإلهية من أجل تنقية وتطهير خطايانا، وإذ لا يمكن أن نكون ابداً بلا جروح فى ضمائرنا، لذلك يجب أن نستخدم هذه الأدوية لتشفى جراحاتنا، ويؤكد كبريانوس أنه لا يجب بأن يتفاخر أحد بأن له قلباً طاهراً نقياً معتقداً أنه فى غير حاجة لإستخدام هذا الدواء من أجل جراحاته لأنه مكتوب «منْ يقول إنى زكيت قلبى تطهرت من خطيتى» (أم٢٠ :٩) ويوحنا الحبيب يقول فى رسالته «إن قلنا أنه ليس لنا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١يو١ :٨) إذاً لا يمكن أن يكون أحد بلا خطية، ومنْ يدعى ذلك إما أن يكون مغرور أو أحمق، وهكذا من غنى مراحم الله التي تعرف أن هؤلاء الذى شفوا بالفداء لا يمكن أن يظلوا بلا جروح تماماً، أنها اعطتنا أدوية تشفى وتعالج هذه الجراح مرة أخرى.

وفى الكتاب المقدس، فى العهدين القديم والجديد، نجد حثاً لشعب الله فى كل زمان ومكان كى يصنعوا أعمال الرحمة، وكل من يجاهد على رجاء ملكوت السموات يأمره صوت ومشورة الروح القدس أن يعطى صدقة، ولأشعياء النبى أعطى الله الوصية «ناد بصوتٍ عالٍ، لا تمسك، إرفع صوتك كبوق واخبر شعبى بتعديهم وبيت يعقوب بخطاياهم» (أش ٥٨ :١) فأول كل شئ يأمر الله بملء قوة غضبه بأن يُخبروا بتعديهم وتُظهر خطاياهم ويقول لهم أنه لا صلواتهم ولا تضرعاتهم ولا أصوامهم يمكن أن

تجعله يغفر خطاياهم، وحتى لو لبسوا مسوحاً فذلك لن يهدأ من غضبه، ولكنه بعد ذلك يوضح لهم أنه فقط بإعطاء الصدقة يمكن أن يُسر الله «تكسر للجائع خبزتك، وتدخل المساكين التائهين الى بيتك، إذا رأيت عرياناً تكسوه ولا تتغاضى عن لحمك، حنئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعاً، ويسير برك أمامك ومجد الرب يجمع ساقتك، حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول هأنذا» (أش٥٨ :٧-٩).

وهكذا أُعطى العلاج الذى نقدم به توبة فى كلمات الله نفسه، فالتعليم الإلهى يرشد الخاطئ إلى ما يجب عليه صنعه، معلماً أن الله يُسر بالأعمال الصالحة لأن الخطايا تتطهر بأعمال الرحمة.

ثم ينتقل القديس كبريانوس إلى الحديث عن تعليم الرب عن الصدقة وأعمال الرحمة فى العهد الجديد، ففى الإنجيل لا يطلب الله أى شئ مرات كثيرة مثلما يطلب أن نعطى صدقة وألا نتمسك بالمقتنيات التى لنا على الأرض بل بالحرى تطلب أن نخبئ كنوزاً فى السماء لأنه يقول «بيعوا مالكم واعطوا صدقة» (لو١٢ :٣٣) وأيضاً «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» (مت٦ :١٩-٢١) وعندما أراد أن يعلم إنساناً حفظ الناموس كيف يكون كاملاً قال له: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى» (مت١٩ :٢١).

وبالمثل فى موضع آخر يقول رب المجد أن أى تاجر للنعمة الإلهية وللخلاص الأبدى يجب أن يبيع كل مقتنياته كى يشترى اللؤلؤة أى الحياة

الأبدية التى ثمنها دم المسيح، ويقول «يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها».

وهؤلاء الذين يراهم يعينون الفقراء يدعوهم أبناء ابراهيم، إذ عندما قال زكا «ها أنا يا رب اعطى نصف أموالى للمساكين وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف» أجابه يسوع «اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن ابراهيم» (لو١٩ :٨، ٩).

ويشرح كبريانوس لِماذ يدعوهم الرب أبناء ابراهيم، ذلك أنه إذا كان ابراهيم قد آمن بالله وحُسب له براً، إذاً بالتأكيد كل من يتبع تعليم الله ويعطى صدقة يؤمن أيضاً بالله، وهؤلاء الذين فيهم حق الإيمان يحفظون مخافة الله، وكل من يحفظ مخافة الله، يوقر الله بأن يتعطف على الفقير، وهم يفعلون ذلك لأنهم يؤمنون ويعرفون أن الأسفار الإلهية لا يمكن أن تكذب وأن الشجرة العقيمة التى بلا ثمر، أى هؤلاء الذين لا ثمر لهم، تُقطع وتلقى فى النار، أما الرحماء فيدعون إلى الملكوت.

وفى موضع آخر فى الإنجيل يدعو الذين يعملون أعمالاً صالحة «مؤمنين» لكنه يقول أن هؤلاء الذين بلا ثمر ليس لهم إيمان «فإن لم تكونوا أمناء فى مال الظلم، فمن يأتمنكم على الحق، وإن لم تكونوا أمناء فى ما هو للغير فمن يعطيكم ما هو لكم» (لو١٦ :١١، ١٢).

وبحكمة رعوية وخبرة روحية ينتقل القديس كبريانوس إلى معالجة نقطة هامة فى التعليم المسيحى عن الصدقة، أى المخاوف التى تنتاب البعض من

أنه سيفتقر لو أعطى صدقة، ويعلمنا كبريانوس قائلاً أننا لا يجب أن نقلق أو نخاف من أننا عندما نكرس أنفسنا تماماً لأعمال المحبة والصدقة، سوف نفتقر بسبب كرم عطايانا، لأن ما يُنفق لأجل المسيح ولأجل تتميم عمل السماء لا يمكن أن يفرغ ابداً، ويوضح أن هذا الوعد لا يعطيه لنا من عندياته، بل هو من الله لأن الروح القدس تكلم بلسان سليمان قائلاً: «من يعطى الفقير لا يحتاج ولمن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة» (أم٢٨ :٢٧) موضحاً أن الرحماء ومعطى الصدقة لا يمكن أن يصيبهم عوز أو إحتياج، لكن على العكس، البخلاء والخائفون على ما لهم سيجدون أنفسهم فيما بعد فى فقر وعوز، ونفس هذا التعليم الإلهى قدمه لنا الرسول المبارك بولس عندما قال «الذى يقدم بذاراً للزارع وخبزاً للآكل سيقدم ويكثر بذاركم وينمى غلات بركم مستغنيين فى كل شئ» ٢كو٩ :١٠) ويقول أيضاً «لأن افتعال هذه الخدمة ليس يسد أعواز القديسين فقط بل يزيد بشكر كثير لله» (٢كو٩ :١٢) وذلك لأن الفقير يشكر الله كثيراً لأجل صدقاتنا وأعمالنا الصالحة، والله يزيد ويكافئ المعطى، وفى الإنجيل يرفض الرب عديمى الإيمان إذ هو يزن فعلاً قلوب الناس ويقول «فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس، فإن هذه كلها تطلبها الأمم (عديمى الإيمان) لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها، لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تُزاد لكم» (مت٦ :٣١-٣٣) فكل شئ سوف يعطى لمن يطلبون ملكوت الله وبره، والله يقول أنه فى يوم الدينونة، هؤلاء الذين تعبوا فى كنيسته وصنعوا أعمالاً صالحة سوف يدخلون الملكوت.

لذلك يجب ألا يخشى الإنسان أن ماله سوف يفرغ فجأة لو كان كريماً جداً، لأنه إذا كان بخيلاً وغارقاً فى خوفه على مقتنياته، سيجد فى النهاية أنه قد فقد الحياة والخلاص نفسه، وبينما هو معمى بخوفه على ماله، لن يرى أنه هو نفسه يضيع، وأنه يحب المال أكثر مما يحب نفسه، وسيكتشف أنه ضحى بنفسه لأجل المال، وهذا ما كان يدور فى فكر الرسول عندما كتب: «لم ندخل العالم بشئ وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئ، فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما، وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون فى تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس فى العطب والهلاك، لأن محبة المال أصل كل الشرور الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة» (١تيمو ٦ :٧-١٠).

ويتساءل كبريانوس «هل تخشى حقاً أن تفرغ ثروتك إذا بدأت تستخدمها فى أعمال المحبة؟ متى حدث أن احتاج أى إنسان بار لمعيشته؟» لأنه مكتوب «الرب لا يجيع نفس الصديق» (أم١٠ :٣) وعندما كان إيليا وحده كان الله يعينه ويغذيه عن طريق الغربان، «هل تعتقد أنك عندما تصنع أعمالاً صالحة وتكسب مسرة ورضى الله سوف تعتاز لطعام؟» لأن الرب نفسه فى الأناجيل يوبخ هؤلاء الذين لهم ذهن متذبذب وإيمان قليل ويقول «انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوى يقوتها، ألستم أنتم بالحرى أفضل منها؟» (مت٦ :٢٦) فالله يطعم الطيور والعصافير، وحتى الخليقة التى لا تشعر ولا تدرك الأمور الإلهية لا تعتاز إلى الطعام والشراب «هل تعتقد أنك ـ وأنت مسيحى وخادم لله ومجاهد فى الأعمال الصالحة وعزيز جداً عند الله ـ سوف تكون ابداً فى عوز؟».

ولا يمكن أن يفكر الإنسان هكذا إلا إذا كان يعتقد أن من يعطى طعاماً للمسيح، لن يطعمه المسيح!! أو أن هؤلاء الذين أُعطوا أموراً سماوية وإلهية سوف يعتازون إلى الأشياء الأرضية!! ويتساءل كبريانوس «من أين يمكن أن يأتى مثل هذا الفكر غير المؤمن والدنس؟ ما الذى يفعله مثل هذا القلب عديم الإيمان فى بيت الإيمان؟ كيف يمكن لأحد وهو لا يثق اطلاقاً بالمسيح أن يدعى **مسيحياً** ؟ إن الاسم **فريسى** يليق به أكثر» ؟».

إذ عندما تحدث الرب فى الأناجيل عن إعطاء الصدقة وعلمنا كيف نستخدم ممتلكاتنا الأرضية بذكاء كى نصنع أصدقاء يستقبلوننا فيما بعد فى المنازل الأبدية «كان الفريسيون أيضاً يسمعون هذا كله وهم محبون للمال فاستهزأوا به» (لو١٦: ١٤).

ويوبخ كبريانوس الإنسان المستعبد لماله ومقتنياته: «أنت عبد وأسير لمالك ومقتنياتك، مقيد بسلاسل ورباطات الطمع، وبعد أن حررك المسيح، عدت ثانية إلى أسرك وسجنك. أنت تدخر المال الذى رغم إدخارك له لن يخلصك. أنت تجمع ثروة وزنها يثقلك بحمل أثقل».

ويذكره كبريانوس بما قاله الله للرجل الغنى:« يا غبى هذه الليلة تُطلب نفسك منك، فهذه التى أعددتها لمنْ تكون؟» وبينما حرص الإنسان على أمواله ومحبته لها يجعله أغنى فى مباهج هذا العالم، إلا أنه يصير أفقر فى عينى الله، لذا يحث كاتبنا مثل هذا الإنسان على أن يقتسم أرباحه مع الله، وأن يجعل المسيح شريكاً معه فى ممتلكاته الأرضية، كى يجعله المسيح شريكاً معه ووارثاً فى ملكوت السموات.

وذاك الذى يظن أنه غنى فى هذا العالم، إنما يخدع نفسه ويضل، لأن

صوت الرب يقول فى سفر الرؤيا لمثل هذا الإنسان «لا تقول إنى أنا غنى وقد إستغنيت ولا حاجة لى إلى شئ ولست تعلم أنك أنت الشقى والبائس وفقير وأعمى وعريان، أشير عليك أن تشترى منى ذهباً مصفى بالنار لكى تستغنى وثياباً بيضاً لكى تلبس فلا يظهر خزى عريتك، وكحل عينيك بكحل لكى تبصر» (رؤ٣: ١٧، ١٨) وينصح كبريانوس الإنسان الغنى أن يشترى من المسيح ذهباً مصفى بالنار كى يصير هو نفسه ذهباً نقياً مطهر بصدقاته وأعماله البارة.

وهنا يقدم كبريانوس الأرملة الفقيرة التى أعطت من أعوازها كمثال وقدوة للأغنياء، فبالرغم من عوزها وفقرها الصعب ألقت بفلسين فى الصندوق، وكان ذلك كل ما تملك، وعندما رآها الرب مدح عملها الصالح، ليس بحسب الكمية بل بحسب النية، ولم ينظر إلى مقدار ما أعطته، بل إلى أنها أعطت كل معيشتها وقال «بالحق أقول لكم أن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع، لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا فى قرابين الله، وأما هذه فمن أعوازها ألقت كل معيشتها التى لها» (لو٢١: ٣-٤).

ويطوب كبريانوس هذه الأرملة المباركة التى استحقت قبل يوم الدينونة أن تجذب إنتباه الديان!! وبينما هى أرملة فقيرة، وجدت عظيمة للغاية فى محبتها، وفى حين أن كل شئ يعطى إنما يُعطى عادة للأرامل والأيتام، إلا أنها هى التى أعطت بينما كان لها الحق فى أن تأخذ، ومن هنا يمكن أن نعرف كم رهيبة هى مجازاة الأغنياء والبخلاء إذ حتى الفقير مدعو لأعمال المحبة.

وحتى نفهم أن هذه الأعمال الصالحة مقدمة لله، يتحدث السيد المسيح عن «قرابين الله» ويقول أن الأرملة ألقت الفلسين فى «قرابين الله»، وهذا يوضح بالأكثر أن مَنْ يشفقون على الفقراء إنما يقرضون الرب.

ثم ينتقل القديس كبريانوس لنقطة أخرى فى كتابه وهى تعليمه للمسيحيين الذين لديهم أطفال ويعتبرون ذلك عذراً يستثنيهم من أعمال الصدقة والرحمة، ويعلمهم كبريانوس أنه يجب أن نفكر أولاً قبل كل شئ فى المسيح الذى يقول أنه يستقبل الأطفال، والذى يحذر هو نفسه قائلاً «من أحب أباً أو أماً أكثر منى لا يستحقنى، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى» (مت١٠ :٣٧) وأيضاً فى سفر التثنية كُتب عن قوة الإيمان ومحبة الله «الذى قال عن أبيه وأمه لم أرهما، وبإخوته لم يعترف وأولاده لم يعرف بل حفظوا كلامك وصانوا عهدك» (تث٣٣ :٩) لإننا إذا أحببنا الله بكل قلوبنا، يكون الله قبل والدينا أو أولادنا.

ويقول القديس يوحنا فى رسالته الأولى أن محبة الله ليست فى هؤلاء الذين لا يعطون الصدقات للفقراء «وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه؟» (١يو٣ :١٧) لأن إعطاء الصدقة للفقير هو إقراض للرب، وما نقدمه للفقير إنما نقدمه للمسيح، ويجب ألا يفضل أحد الأمور الأرضية عن الأمور السمائية، ويجب ألا يعتبر الأرضيين أكثر أهمية من السمائيين.

ويقدم كبريانوس ـ كعادته ـ مثالاً كتابياً ضمن حديثه، وهنا يقدم أرملة صرفة صيدون، التى عندما فرغ كل شئ بسبب الجفاف والمجاعة، صنعت كعكة بالدقيق والزيت المتبقى لديها، وكانت تستعد لتموت هى وابنها

عندما وصل إيليا النبى وطلب منها أن تصنع له كعكة صغيرة أولاً ثم تصنع لنفسها وأخيراً لابنها، فلم تتردد أن تطيعه، ورغم أنها كانت أماً جائعة ومحتاجة، إلا أنها أعطت لإيليا قبل ابنها.

لقد صنعت هذه الأملة عملاً مرضياً لله، فما طُلب منها أعطته فى الحال ومجاناً ، ولم تعطه من فيض بل من إحتياج وعوز شديد، وبينما كان ابنها يتضور جوعاً فضلت عليه آخر أى إيليا، ولم تسمح للجوع أو الإحتياج أن يهزم الرحمة و بينما كانت الحياة الأرضية تحتقر فى هذا العمل، كانت حياة النفس تُنقذ وتخلص، لذلك أظهر إيليا ـ الذى يرمز للمسيح ـ أن المسيح بحسب رحمته المُحبة يعطى كل أحد جعالته، إذ قال «هكذا قال الرب إله إسرائيل أن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطراً على وجه الأرض» (١ملو١٧ :١٥).

وبحسب إيمانها بالوعد الإلهى، تضاعفت وتزايدت هذه الأشياء التى أعطتها، وأثمر عملها البار ورحمتها التى أظهرتهما، ولم يفرغ كوار الدقيق ولم ينقص كوز الزيت.

إن هذه الأم لم تكن تعرف المسيح ولا سمعت تعاليمه، ولا كانت مفدية بصليبه وآلامه، ومع ذلك قامت بصنيعها البار هذا، فكم بالأحرى يسئ للمسيح هؤلاء الذين يضعون أنفسهم وأولادهم قبل المسيح ويدخرون ثروتهم بدلاً من أن يقتسموا غناهم الكثير مع هؤلاء الذين فى إحتياج وعوز أشد.

ويشرح كبريانوس أن إهتمام أى أب بأولاده وأبنائه لا يعنى أن يكون إنساناً زمنياً ضعيفاً، بل بالأحرى يجب أن يكون قوياً، ويجب أن ينسب

الثروة التى له والتى يدخرها لورثته إلى الله، ويجعل من الله وصياً على أولاده ليكون هو حافظهم من كل آلام هذا العالم، وهؤلاء الذين يكرسون أنفسهم لإعداد ميراث أرضى لأولادهم أكثر من الميراث الذى فى السموات، إنما يسلمون أولادهم للشرير وليس للمسيح، ويخطئون مرتين ويسقطون فى خطية مزدوجة، فهم لا ينالون لأولادهم معونة الله الآب، بل يعلمونهم أن يحبوا ميراثهم أكثر من المسيح.

إن الآباء يجب أن يتشبهوا بطوبيا، ويعطوا أبناءهم نصائح نافعة لحياتهم مثل النصيحة النافعة التى أعطاها طوبيا لابنه حينما قال «اسمعوا يا بنى لأبيكم اعبدوا الرب بحق وابتغوا عمل مرضاته، وأوصوا بنيكم بعمل العدل والصدقات وأن يذكروا الله ويباركوه كل حين» (طوبيا١٤ :١٠-١) وأيضاً «فليكن الله فى قلبك جميع أيام حياتك واحذر أن ترضى بالخطية وتتعدى وصايا الرب إلهنا، تصدق من مالك ولا تحول وجهك عن فقير وحينئذ فوجه الرب لا يحول عنك، كن رحيماً على قدر طاقتك، إن كان لديك كثير فابذل كثيراً وإن كان لك الضرورة، لأن الصدقة تنجى من كل خطية ومن الموت ولاتدع النفس تصير إلى الظلمة. إن الصدقة هى رجاء عظيم عند الله العلى لجميع صانعيها؟!» (طوبيا٤ :٦-١٢).

ويقارن كبريانوس بين التقدمات والعطايا التى تُقدم للإمبراطور أو الحاكم وبين تلك التى تقدم لله، فالأمم تعد تقدمات كريمة لتقدمها إذا كان الإمبراطور أو الحاكم حاضراً، والذين يقدمونها يتزينون هم أنفسهم بزينة عظيمة، فكم أعظم جداً وأكثر مجداً هو مجد التقدمة الكريمة التى فيها يكون الله حاضراً؟ لابد أن تكون الزينة أعظم وأغنى بكثير عندما تكون

قوات السماء مجتمعة فى هذا المشهد، عندما تجتمع الملائكة، وعندما يكون الشخص الذى يقدم، ليس مرشحاً لمنصب فى الإمبراطورية أو خلافه، بل سوف ينال الحياة الأبدية، عندما لا يكون السعى وراء رضى الناس الفارغ بل وراء الجعالة الدائمة التى لملكوت السموات.

وينبهنا القديس الشهيد إلى حث المسيح لنا على الأعمال الصالحة، إذ ليس هناك حث على ذلك أعظم من قول رب المجد أن كل ما نعطيه للمحتاج والفقير إنما نعطيه له، وقوله أيضاً أن عدم مساعدتنا للفقير هى إساءة له هو نفسه، وهكذا أكد لنا رب المجد أنه إن كان أحد فى الكنيسة لا يتأثر لرؤية أخيه أو اخته فى عوزه، فلن يتأثر برؤيته هو نفسه (أى رؤية رب المجد).

«هكذا أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، أنتم الذين تخافون الرب، والذين رفضتم ودستم العالم تحت أقدامكم ورفعتم عقولكم إلى أعلى إلى أعظم الأمور الإلهية، فلنقدم طاعة بإيمان تام وعقل مكرس وبعمل دائم، لننال رضى الرب، فلنعط ثياباً للمسيح على الأرض لننال ثياب السماء، فلنقدم طعاماً وشراباً من هذه الأرض كى نذهب إلى الوليمة السمائية مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، فلنبذر بفيض وكثرة لننال حصاداً عظيماً، فلنفكر فى حياتنا وخلاصنا الأبدى بينما لا يزال هناك وقت، كما ينصح الرسول ويقول: «فإذا حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيمان فلا نفشل فى عمل الخير لأننا سنحصد فى وقته إن كنا لا نكل» (غلا٦ :٩-١٠).

ثم يتحدث أسقف قرطاجنة عن كنيسة الرسل الأولى، وما فعله المؤمنون

تحت تدبير الرسل عندما كان إيمان المؤمنين ملتهباً، فقد باعوا بيوتهم ومزارعهم وقدموا بإرادتهم كل ما يملكونه للرسل كى يوزعوه على الفقراء. لقد باعوا مقتنياتهم الأرضية ووزعوا ثمنها كى يستطيعوا أن يستمتعوا بثمار الراحة الأبدية، واقتنوا منازل حيث سيذهبون ليعيشوا إلى الأبد، هكذا كان جهادهم وفيضهم فى الأعمال الصالحة وحدتهم فى المحبة كما نقرأ فى سفر أعمال الرسل «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد يقول أن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شئ مشتركاً» (أع٤:٣٢).

فيجب على الإنسان الذى صار ابناً لله بميلاد روحى أن يقتدى بعدل الله الآب بناموس سمائى، لأن كل ما هو لله هو ملكية عامة، ولا يستقصى أحد من كرمه وعطاياه، كى يصير للجنس البشرى كله نصيباً متساوياً فى صلاح الله وكرمه.

وهكذا بالمثل يعطى النهار للجميع نوره، والشمس تعطى للجميع بهاءها، والمطر ماءه، والريح نفختها، وهناك نوم واحد لكل من ينعس، وشعاع واحد من النجوم... وفى مثال المساواة هذا، هؤلاء الذين على الأرض والذين يقتسمون ما يمتلكونه مع إخوتهم، والذين هم أحرار وأبرار فى عطاياهم للجميع إنما يتشبهون بالله الآب.

ويتأمل كبريانوس فى المجد المعد لهؤلاء المتعطفين على المساكين والفقراء «إذاً أيها الإخوة والأخوات الأعزاء ماذا سيكون مجد هؤلاء المحبين المتعطفين؟ كم عظيم وعال هو الفرح (الذى لهم) عندما يبدأ الرب يعد شعبه ويوزع الجعالات على فضائلهم وأعمالهم الصالحة كما وعد، عندما

يبدأ يعطى العطايا السمائية عوضاً عن الأرضية، الأبدية عوضاً عن الزمنية، العظيمة عوضاً عن الصغيرة؟ عندما يقدمنا للآب الذى استعادنا له بتقديسه؟» سيهبنا عطية الحياة الأبدية غير المائتة التى أُعطيت لنا مرة ثانية بدمه المحيى، ويقودنا إلى الفردوس ويفتح لنا ملكوت السموات.

وعلينا أن نحفظ هذه الأمور فى أفكارنا ونفهمها فى ملء الإيمان، ونحبها بكل قلوبنا ونشتريها بعظمة الروح التى تظهر فى أعمالنا الدائمة، أى أعمال المحبة والرحمة، تلك الأعمال المحبية الإلهية التى هى تعزية المؤمنين الكبرى، هى حامية لرجائنا، ضرورية للضعيف، وممجيدة للقوى، وبها ينال المسيحيون النعمة الروحية.

ويصور القديس كبريانوس جهادنا فى أعمال البر بأنه سباق يشاهده المسيح ويحثنا على أن نجاهد فيه ونتنافس، ومن يوجد فى يوم الدينونة أنه قد كان سريعاً فى الجرى فى سباق الكرم والسخاء هذا، فإن الرب سيهبه الجعالة التى يستحقها.

ويختتم القديس كبريانوس كتابه بقوله عن هذه الجعالة:

«فى زمان السلام سيهبنا نحن الفائزين إكليلاً أبيض لأجل أتعابنا، وفى زمان الإضطهاد، سوف يهب أيضاً إكليلاً أحمر لأجل آلامنا».



عرض لكتاب

ثياب العذارى

On The Dress Of Virgins

يستهل القديس كبريانوس كتابه بالحديث عن التلمذة شارحاً دوافعه فى الكتابة، فالتلمذة هى حارسة الرجاء ورابطة الإيمان، المرشدة لطريق الخلاص، معلمة الفضيلة، وبها نثبت فى المسيح ونحيا دوماً لله، ونـنال المواعيد السمائية والجعالات الإلهية... إتباعها نافع ومفيد وإهمالها مهلك ومميت، فالروح القدس يقول فى المزامير: «وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضى وتحمل عهدى على فمك، وأنت قد أبغضت التأديب وألقيت كلامى خلفك» (مز٥٠ :١٦، ١٧) وكذلك يحذرنا سليمان: «يا ابنى لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه لأن الذى يحبه الرب يؤدبه» (أم٣ :١١) لكن إذا كان الله يوبخ من يحبه لأجل تقويمه وتهذيبه، فإن الإخوة أيضاً ـ وخاصة الكهنة ـ لا يبغضون من يوبخونه بل يحبونه، إنما هم يوبخونه لأجل تهذيبه لأن الله قد تنبأ بأرميا قبلاً عندما قال: «وأعطيكم رعاة حسب قلبى فيرعونكم بالمعرفة والفهم» (أر٣ :١٥).

ويستطرد أسقف قرطاجنة شارحاً أنه إذا كانت التلمذة ممتدحة كثيراً وفى كل موضع فى الكتاب المقدس، فليس هناك أى شئ آخر يليق بنا أن نشتهيه ونريده ونتمسك به عدا أن نؤسس بيوتنا على الصخر غير متزعزعة

من عواصف وزوابع العالم، كى نصل بالتعاليم الإلهية إلى جعالات الله.

ثم يبدأ الكاتب فى تناول موضوع كتابه بعد هذه المقدمة، فيذكّر قراءه أن أعضاءنا عندما تتطهر من دنس المرض القديم بتقديس حميم الحياة أى المعمودية، تصير هياكل لله، فيجب ألا تُهان أو تدنس، وعلينا نحن عباد وكهنة هذه الهياكل أن نطيع المسيح الذى صرنا خاصته كما يقول بولس الرسول: «إنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد أُشتريتم بثمن فمجدوا الله فى أجسادكم» (١كو٦ :١٩).

ويحثنا القديس أن نمجد الله فى جسد طاهر عفيف بطاعة كاملة، فإذ قد فدانا المسيح، لابد أن نطيعه بكل طاعة الخدمة، حتى لا يدخل أى شئ دنس أو غير طاهر داخل هيكل الله، لئلا يُهان فيهجر الهيكل الذى سكنه.

وكلمات الرب التى تشفينا وتعلمنا وتحذرنا هى «ها أنت قد برأت فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر» (يو٥ :١٤) فهو يهب حياة، يهب شفاء، لكنه يتوعد بشدة من يستعبد ثانية لنفس الخطايا التى شفاه هو منها، ويقول كبريانوس: «ليهتم الرجال والنساء، الأولاد والبنات، كل جنس وكل سن، أن يحفظوا ما نالوه من تعطف الرب طاهراً نقياً بخوف ورعدة».

ويوجه كبريانوس حديثه للعذارى، إذ بقدر ما أن مجدهن أعظم، بقدر ما يقتضى إهتماماً أكثر، ويمتدحهن قائلاً أنهن زهرة البذرة الكنسية، نعمة وزينة المواهب الروحية، العمل التام غير الفاسد الذى للمدح والكرامة، صورة الله، أكثر أعضاء قطيع المسيح بهاءً، وبهن تفرح الأم الكنيسة، ومن هنا كان إهتمام كبريانوس أن يحثهن بمحبة أكثر مما بقوة، فهو لا يوبخهن

بل يخشى عليهن من حروب الشيطان وتجاربه.

وهو ليس إهتماماً باطلاً ولا خوفاً فارغاً أن تأخذ العذارى نصائح لأجل طريق الخلاص، حتى يستطعن ـ بعد أن كرسن أنفسهن للمسيح وابتعدن عن كل شهوة جسدانية ونذرن أنفسهن لله فى الجسد كما فى الروح ـ أن يكملن عملهن ذا الجعالة العظيمة، ولا يسعين لأن يُسر أى أحد بهن إلا ربهن الذى منه ينتظرن جعالة البتولية، كما قال هو نفسه «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعطى لهم، لأنه يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» (مت١٩ :١١).

ويرى كبريانوس أن كلمات ملاك سفر الرؤيا تعلن عظمة البتولية وتكرز بها «هؤلاء الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار، هؤلاء هم الذين يتبعون الحمل حيثما ذهب» (رؤ١٤ :٤) ويتساءل «لكنْ إذا كانت العفة تتبع المسيح، والبتولية جعالتها الملكوت، فما شأنها إذاً بالثوب الأرضى أو بالزينة التى بها بينما يجتهدن لإرضاء الرجال، يسيئن إلى الله؟» رغم أن الرسول بولس يقول «فلو كنت بعد أرضى الناس لم أكن عبداً للمسيح» (غلا١ :١٠).

لكن العفة لا تتمثل فقط فى طهارة الجسد، بل وأيضاً فى الحشمة واللياقة وكذلك فى عفة الثياب والزينة، كى تكون غير المتزوجة ـ بحسب كلمات الرسول ـ طاهرة جسداً وروحاً، ويعلمنا بولس الرسول قائلاً «غير المتزوج يهتم فى ما للرب، كيف يرضى الرب، وأما المتزوج فيهتم فى ما

للعالم، كيف يرضى إمرأته، إن بين الزوجة والعذراء فرقاً، غير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً» (١كو ٧ :٣٢) فيجب ألا يشك أحد عندما يرى عذراء إذا كانت عذراء أم لا، بل يجب أن يظهر الكمال متساوياً فى جميع الأمور، ويجب ألا يشكك ثوب العذراء فى صلاح ذهنها، ويتساءل كاتبنا «لماذا تتمشى متزينة؟ لماذا تسير بشعر مزين مصفف كما لو كان لها زوج أو تطلب واحداً؟».

ويؤكد القديس كبريانوس أن منْ ليس لهن أزواج يجب أن يحفظن أنفسهن طاهرات عفيفات، ليس فقط فى الجسد بل وأيضاً فى الروح، لأنه ليس من الصواب أن تصفف العذراء شعرها لأجل مظهر جمالها، أو تتباهى بجمالها الجسدى، فى حين أنه ليس لديها جهاد أعظم من جهادها ضد جسدها، وليس لديها صراع أصعب من هزيمة وإخضاع الجسد.

ورغم أن بولس الرسول يعلن بصوتٍ عالٍ «وأما من جهتى فحاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به قد صُلب العالم لى وأنا للعالم» (غلا٦ :١٤) تفتخر عذراء فى الكنيسة بجمالها الجسدى ومظهرها!! ويضيف بولس قائلاً «ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات» (غلا٥ :٢٤) ويتعجب كبريانوس كيف أن «منْ تنذر أن تجحد شهوات وأهواء الجسد توجد وسط هذه الأمور عينها التى نذرت أن تجحدها!!».

إن الرب يقول لأشعياء «كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل، ييبس العشب وذبل الزهر لأن نفخة الرب هبت عليه، حقاً الشعب عشب

ويبس العشب وذبل الزهر وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد» (أش٤٠ :٦ـ٨) ومن غير اللائق بأى مسيحى، وبالأخص بالعذارى، أن ينظر أو يهتم بأى مجد أو كرامة للجسد، بل فقط يطلب ويشتهى كلمة الله، حتى ينال العطايا التى تدوم إلى الأبد.

ويتحدث كبريانوس عن العذراى اللائى يتعذبن ويتألمن لأجل الاعتراف بالاسم الحسن وكيف أنهن أقوى من العذابات، عندما يجتزن النيران، الصلبان، السيف، الحيوانات المفترسة، حتى يكللن، ويصف عذاباتهن بأنها أفضل زينة لجسدهن، وأنها «جواهر الجسد الثمينة».

ثم يتناول أسقف قرطاجنة الشهيد موضوع النساء الثريات اللائى يفرحن بغناهن، موضحاً لهن معنى الغنى الحقيقى وكيفية إستخدامه، فالغنية هى الغنية فى الله، والثرية هى الثرية فى المسيح، فهذه هى البركات الروحية الإلهية السماوية التى تقودنا إلى الله والتى تدوم معنا فى ملكية دائمة، أما سائر الأشياء الأرضية التي يقتنيها الإنسان فى هذا العالم، والتى ستبقى هنا فى هذا العالم، فسوف تدان كما سيدان العالم نفسه الذى جحدنا قواته ومسراته عندما قدمنا قدوماً مباركاً إلى الله، ويوحنا الحبيب البتول يعلمنا ويحثنا وهو يشهد بصوت سمائى «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم. إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب، لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة، ليس من الآب بل من العالم، والعالم يمضى وشهوته، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١يو٢ :١٥-١٧).

وبينما هن يدعين أنفسهن ثريات، ينصحهن بولس الرسول بالاعتدال فى ثيابهن وزينتهن قائلاً: «يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن، بل كما يليق بنساء متعاهدات بتقوى الله بأعمال صالحة» (١تيمو٢ :٩، ١٠) وأيضاً بطرس الرسول يعلم: «لا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلى بالذهب ولبس الثياب، بل إنسان القلب الخفى» (١بط٣ :٣، ٤) ... لكن إذا كانت هذه الآيات تحذر النساء المتزوجات اللائى ينتحلن عذراً لأجل ثيابهن بإرجاع ذلك إلى أزواجهن، وتنبهّن إلى ضرورة الخضوع لتعليم الكنيسة، فكم بالأحرى جداً يليق بالعذراء أن تفعل ذلك، وهى التى ليس لها عذر لتتزين، والتى لا يمكن أيضاً أن يُعزى خطأها إلى أى شخص آخر، بل تظل هى نفسها المخطأة.

ويحدث كبريانوس هؤلاء الثريات مرسياً قاعدة هامة إذ يقول: «**ليس كل ما يمكن أن يُفعل يجب أن يُفعل**» ويجب ألا تكون الشهوات الناتجة عن إفتخار وكبرياء العالم فوق كرامة ومجد البتولية لأنه مكتوب «كل الأشياء تحل لى لكن ليس كل الأشياء توافق، كل الأشياء تحل لى ولكن ليس كل الأشياء تبنى» (١كو١٠ :٢٣).

ويتناول كاتبنا فى حديثه هؤلاء اللائى يصففن شعورهن بإهتمام زائد، ويسرن كما لو كن يرغبن فى جذب إنتباه الآخرين، جاذبات عيون الشباب الصغار وراءهن، مشعلات لهيب الشهوات، إذ رغم أنهن أنفسهن لا يهلكن، إلا أنهن يتسببن فى هلاك الآخرين، ويقدمن أنفسهن كسيف أو سم للناظر إليهن، ولا يمكنهن أن ينتحلن عذراً بحجة أنهن عفيفات

ونقيات فى الذهن، لأن ثوبهن الخجل وزينتهن المفرطة تدينهن، ولا يمكن أن يعتبرن ضمن عذارى وعرائس المسيح...

هن يقلن أنهن غنيات وثريات، لكن لا يليق بالعذراء أن تفتخر بغناها لأن الرسول بولس يقول «الذين يشترون كأنهم لا يملكون، والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو٧:٣٠-٣١) وكذلك بطرس الذى أوصاه الرب أن يرعى خرافه يقول أن ليس له ذهب ولا فضة لكن يقول أنه غنى فى إيمانه وفضيلته، وبهما صنع أعمالاً عديدة وعجائب...

وينصحهن القديس كبريانوس إذا كن يريدن أن يستخدمن ثرواتهن، أن يستخدمنها لأجل أعمال الخلاص، ولأجل الأهداف الصالحة، فيستخدمنها لأجل الأمور التى أوصى بها الله... ويعلمهن قائلاً:

«لتدعن الفقير يشعر أنكن غنيات
ولتدعن المحتاج يشعر أنكن ثريات
إقرضن مقتنياتكم لله
قدمن طعاماً للمسيح».

ويجب أن يحركن الرب بصلوات الكثيرين كى يهبهن أن يكملن مجد البتولية وأن يبلغن إلى مجد الرب، أى بعطاياهن للفقراء سوف يصلون لأجلهن وإستجابة لهذه الصلوات سيهبهن الله مجد البتولية.

ويحثهن المعلم العظيم أن يخبأن كنزهن حيث لا ينقب سارق وحيث لا يفسد صدأ، لأنهن إذا ظنن أن الغنى الذى منحهن إياه الله إنما هو لأجل

أن يستمتعن به يخطئن ضد الله، بل يجب أن ينتبهن إلى خلاصهن، لأن الله أعطى أيضاً صوتاً، ومع ذلك لا يعد هذا سبباً لأن نغنى الأغانى الباطلة الغير لائقة.

كذلك شاء الله أن يكون الحديد لأجل خير الأرض، لكن هذا لا يعنى أنه لابد أن تُرتكب الجرائم (بالأسلحة الحديدية) ويسأل كبريانوس: «هل معنى أن الله عين أن يوجد البخور والخمر والماء، أنه لابد أن تقدم ذبائح للأوثان؟ أو هل لأن قطيع الماشية كبير جداً فى حقلكن، يجب عليكن أن تقدمن محرقات وتقدمات للألهة؟».

وهكذا الغنى هو تجربة إلا إذا أُستخدم فى خدمة أهداف صالحة، لذلك يجب على كل إنسان ـ بحسب مقدار غناه ـ أن يفتدى تعدياته بعطاياه لا أن يزيدها (وقد قدم كبريانوس نفس هذا الفكر بإستفاضة فى كتابه الأعمال والصدقات، حيث شرح كيف أن الصدقة تغفر الخطية).

إن سمات الزينة والثياب وإغراءات الجمال لا تليق إلا بالزانيات وغير العفيفات، وليس ثوباً ـ بصفة عامة ـ أثمن وأغلى من ثياب هؤلاء اللواتى عفتهن رخيصة، ولذلك نقرأ فى الكتاب المقدس ـ الذى به أراد الله أن يعلمنا ويهذبنا ـ وصفاً للمدينة الزانية أنها جميلة ورائعة للغاية فى المنظر بسبب زينتها، ولكنها ستهلك بسبب هذه الزينة عينها: «ثم جاء واحد من السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الجامات وتكلم معى قائلاً لى هلم فأريك دينونة الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التى زنى معها ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها، فمضى بى الروح إلى برية

فرأيت امرأة جالسة على وحش قرمزى مملوء أسماء تجديف له سبعة رؤوس وعشرة قرون والمرأة كانت متسربلة بأرجوان وقرمز ومتحلية بذهب وحجارة كريمة ولؤلؤ ومعها كأس من ذهب فى يدها مملوء رجاسات ونجاسات زناها» (رؤ١٧ :١) ويؤكد كبريانوس ضرورة أن تبتعد العذارى العفيفات النقيات عن ثياب غير العفيفات وعن طرقهن، وعن زينة الزانيات.

فأشعياء النبى أيضاً وهو مملوء من الروح القدس يصرخ ويوبخ بنات صهيون إذ أفسدهن الذهب والفضة والثياب، ويوبخهن لأنهن غارقات فى ثراء مهلك ومبتعدات عن الله لأجل مسرات العالم، ويقول: «من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن، يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرى الرب عورتهن، ينزع السيد فى ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحراز والخواتم وخزائم الأنف والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس والمرائى والقمصان والعمائم والأزر فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح وعوض الجمال كى» (أش٣ :١٦-٢٤) فهذا ما يلومه الله ويعلنه لأنه يقول أن العذارى فاسدات، فإذ ابتعدن عن العبادة الحقيقية الإلهية وصرن عاليات، سقطن برؤوسهن المزينة وصار نصيبهن الخزى والعار، وإذ لبسن الحرير والارجوان، لا يمكنهن بعد أن يلبسن المسيح، وإذ تزين بالذهب واللآلئ والقلائد، فقدن زينة القلب والروح.

ويحذر العذارى أن يتجنبن ذلك الذى كان سبباً لهلاك الآخرين، فمن

ذا الذى يشتهى أن يأخذ ما كان سيفاً وسلاحاً لقتل آخر؟ وإذا كان من شرب من الكأس قد مات، فسنعرف بالتأكيد أن ما شربه كان سماً، وإذا كان أحد قد مات بعد تناول الطعام لن نأكل أو نشرب مما رأينا قبلاً أنه كان سبباً لهلاك الآخرين، ويلخص تحذيره للعذارى قائلاً: «أى جهل للحقيقة هو، وأى جنون عقل أن تشتهين ما هو مؤذى وما سوف يؤذى دوماً، وأن تعتقدن أنكن أنفسكن لن تهلكن بهذه الأمور التى تعلمن أن بها قد هلك آخرون!!».

ويوضح الكاتب أنه ليس فقط العذارى والأرامل بل وأيضاً النساء المتزوجات وكل جنس المرأة لابد أن يعلمن أن عمل الله وصنعته يجب ألا يُغش ويُغيّر سواء بإستخدام الألوان والأصباغ أو بأى نوع من المساحيق التى تفسد الملامح الطبيعية، لأن الله يقول «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك١ :٢٦) «وهل يجرؤ أحد أن يغير أو يبدل ما عمله الله؟».

إنهن يحاولن أن يغيرن ما عمله الله غير عالمات أن كل ما أتى إلى الوجود هو من عمل الله وصنعته، فإذا كان هناك رسام ورسم بدقة وألوان رائعة صورة لشخص ما، واكتملت الصورة وصارت شبه الشخص المرسوم فعلاً، ثم جاء آخر ووضع يده عليها كما لو كان ـ لأنه أكثر مهارة ـ يمكنه أن يجعلها أفضل، سيكون من الطبيعى أن يحدث خطأ شديد وتلف للصورة، وسيكون ذلك سبباً وجيهاً لغضب الرسام الأصلى.

وارتكاب العذارى لمثل هذه التعديات إنما هو إهانة لله الخالق الصانع، وعندما يستخدمن الأصباغ المغرية ويتزين ويصففن شعورهن، يشوهن العمل الإلهى ويزغن عن الحق.

إن صوت الرسول المحذر يقول: «نقوا منكم الخميرة العتيقة لكى تكونوا عجيناً جديداً كما أنتم فطيراً، لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا، إذاً لنعيد ليس بخميرةٍ عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق» لكن هل يحفظ الإخلاص والحق عندما يتلوث ما هو مخلص ويتدنس بألوان مغرية، وعندما يتبدل ما هو حق إلى كذب بالأصباغ الخادعة والمساحيق؟ رغم أن الرب يقول: «لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء» (مت٥: ٣٦).

ويطلب كبريانوس فى محبة أبوية من العذارى أن يتذكرن أنهن إذا تزين بالمساحيق هكذا، فإن خالقهن لن يعرفهن ثانية فى يوم القيامة، وسيبعدهن عن جعالاته ومواعيده ويرفضهن موبخاً إياهن قائلاً أن هذا ليس عمله ولا هذه صورته، وأنهن قد لوثن بشرتهن بمسحوق كاذب وغيرن شعرهن بألوان دنسة، ففسدت صورتهن وتبدلت رزانتهن وهدوءهن...

ويحذرهن أنهن لن يستطعن رؤية الله لأن عيونهن لم تعد تلك التى صنعها الله، بل تلك التى أفسدها الشيطان، إذ قلد العيون الحمراء المرسومة التى للحية، ولأنهن متزينات مثل عدوهن فمعه أيضاً سوف يُحرقن قريباً... ويجب أن تتفكر خادمات الله فى هذه الأمور، ويجب أن ترهبنها ليل نهار.

فلتنظر النساء المتزوجات إلى الأمر هكذا، وينظرن كيف يخدعن أنفسهن بالحديث عن رغبتهن فى إرضاء أزواجهن، وبينما يجعلن أزواجهن عذراً لهن، يجعلونهم شركائهن فى خطأهن.

أما العذارى ـ واللائى يوجه إليهن كبريانوس حديثه ـ اللائى تزين

بفنون من هذا النوع، فيرى كاتبنا أنه يجب ألا يعتبرن فى عداد العذارى بل مثل الخراف المُصابة والماشية المريضة، يعزلن عن قطيع البتولية المقدس والنقى لئلا بوجودهن وعيشهن معاً يلوثن الباقى بعدوى مرضهن، لئلا يفسدن أخريات كما هلكن هن أنفسهن.

وينهى أسقف قرطاجنة العذارى عن حضور حفلات الزفاف، وعن الإشتراك فى المناقشات والأحاديث غير العفيفة الدنسة، وعن سماع ما لا يليق، وعن الجلوس على موائد السكارى والكلمات المخزية، ويتساءل «أى مكان فى الزفاف لتلك التى ذهنها ليس نحو الزواج؟ وما الذى يمكن أن يكون ممتعاً أو مُفرحاً لها فى هذه الأعمال، حيث الرغبات والشهوات مختلفة عن تلك التى لها؟» ويُعد فشلاً ذريعاً للعذراء فى تحقيق نذرها عندما تذهب هناك عفيفة وتخرج غير عفيفة!! ورغم أنها تظل بتول فى جسدها لكن فى العينين، فى الأذنين، فى اللسان، فقدت الكثير من الفضائل التى كانت قد إقتنتها قبلاً.

كذلك ينهيهن عن إرتياد الحمامات العامة بحجة غسل الجسد، لأن فى هذه الحمامات من الخلاعة والفساد ما يفوق المسارح، وحتى إن لم تتأثر العذراء بما تراه هناك من فساد ومشاهد شهوانية، إلا أنها ستكون عثرة للآخرين وموضع شهوتهم، فهذه الحمامات لا تغسل أو تطهر الجسد، بل تدنسه.

لذلك تحزن الكنيسة على عذاراها وتأن وتنوح بسبب سيرهن المخزية، فبينما تريد العذارى أن تتزين بعناية أكثر، وأن يتجولن بحرية أكبر، لا يعدن

بعد عذارى، بل فاسدات بخزى ماكر، ويصرن أرامل قبل أن يتزوجن، زانيات خائنات، ليس لأزواجهن، بل للمسيح، وبقدر ما كان نصيبهن قبلاً أن ينلن جعالات عظيمة لأجل عذراويتهن، كذلك سينلن عقاباً مريعاً لأجل فقدانهن عذراويتهن وبتوليتهن.

وبمحبة رعوية يحث القديس كبريانوس بناته العذارى قائلاً:

«لذلك استمعن إلىّ أيتها العذارى كأب
استمعن أرجوكن لمن يخاف بينما يحذر
استمعن لمن يحذركن بإخلاص لأجل فائدتكن ومنفعتكن
احفظن أنفسكن كما صنعكن الله الخالق
احفظن أنفسكن كما زينكن أبوكن السماوى
ليظل وجهكن غير فاسد
ورقبتكن غير مزينة، وهيئتكن بسيطة
ولا تدعن ثقوباً تصنع فى آذانكن
لا تدعن الأساور والقلائد الثمينة تلتف حول أذرعتكن أو رقابكن
فلتكن أقدامكن حرة من القيود (القلائد) الذهبية
شعوركن غير ملوثة بأى صبغة
عيونكن مستحقة أن تعاين الله
فليكن استحمامكن مع النساء اللواتى بينهن يكون حميمكن عفيفاً
ابتعدن عن الأعياد المخزية وموائد الزواج الماجنة التى سمها خطر
اهزمن الثياب لأنكن عذارى
اهزمن الذهب لأنكن تهزمن الجسد والعالم،

فمن غير المعقول ألا يستطيع (العدو) الأكبر أن يهزمكن
بينما توجدن مهزومات من الأصغر!!
عسير وضيق هو الطريق المؤدى إلى الحياة
شاق وصعب هو الدرب الذى يفضى إلى المجد
عبر هذا الطريق يتقدم الشهداء، تعبد العذارى، يتقدم الأبرار
هناك يتملق الشيطان كى يخدع،
يبتسم كى يصنع شراً، يغوى كى يقتل».

ويرى كبريانوس أن مرتبة العذراى تالية على الفور لمرتبة الشهداء، فثمرة الشهداء هى مئة ضعف، وثمرة العذارى هى ستون ضعف، وكما أن الشهداء لا يفكرون فى الجسد أو العالم، كذلك العذارى ـ اللائى جعالتهن تالية فى النعمة ـ يجب أن يكون لهن أيضاً قوة إحتمال تالية للشهداء، فالإرتقاء للأمور العظيمة ليس بالأمر السهل، فأى كد نبذل وأى عمل نعمل عندما نحاول أن نصعد التلال أو قمم الجبال! فإى كد وعمل إذاً كى نصعد إلى السماء؟ لكن إذا نظرنا إلى جعالة الموعد، سنجد أن العمل أقل...

ويحث العذارى أن يتمسكن بقوة بما قد بدأن أن يكنه، وبما سوف يكنه، لأن هناك جعالة عظيمة تنتظرهن، ومكافأة عظيمة للفضيلة، ويشرح لهن أى تعب تتجنبه فضيلة العفة، وأى صلاح تقتنى، فالله يقول للمرأة: «تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (تك٣ :١٦) أما العذارى فهن متحررات من هذا الحكم، فلا يخشين أحزان وآنات النساء وليس لديهن خوف من الحبل ولا يتسلط

زوج عليهن، لكن سيدهن ورأسهن هو المسيح، وهذا ما أعلنه الرب بقوله: «أبناء هذا الدهر يزوِّجون ويزوَّجون ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الموت لا يزوجون ولا يزوجون إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضاً لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة» (لو٢٠ :٣٤-٣٦) فالحالة التى يبلغها الأبرار فى القيامة تبلغها العذارى الآن، إذ يقتنين فى هذا العالم مجد القيامة، ويعبرن العالم دون الإصابة بسموم العالم، ولأنهن يعشن عفيفات بتولات، لذلك هن مساويات لملائكة الله، لكن يجب أن يحفظن بتوليتهن بصبر، وكما بدأن بشجاعة كذلك يكملن جهادهن دوماً، ولا يطلبن زينة العنق ولا الثياب بل زينة السلوك وينصحهن القديس كبريانوس: «فلترتفع عيونكن نحو الله والسماء، وليس إلى أسفل نحو شهوة الجسد وشهوة العالم».

لقد أمرت الوصية الأولى بالنمو والكثرة، وجاءت الوصية الثانية تمتدح العفة والبتولية وتوصى بها، لكن الرب لا يأمر أن نعيش خصيان لأجل الملكوت، لكنه فقط يحثنا، فهو لا يضع نير الضرورة لأن إختيار الإرادة الحرة متروك للإنسان، لكن عندما يقول أن فى بيت أبيه منازل كثيرة، يعنى بهذا أن هناك سكنى فى منازل أفضل، وهو ما تطلبه العذارى، إذ يتركن شهوات ورغبات الجسد، فينلن جعالة ذات نعمة عظيمة فى المنزل السمائى.

حقاً كل الذين ينالون العطايا الإلهية والميراث السمائى بتقديس المعمودية حيث يخلعون الإنسان العتيق بنعمة الحميم المخلص، ويتجددون بالروح القدس من دنس المرض القديم، يتطهرون بهذه الولادة الثانية، لكن أعظم قداسة وأعظم حق لهذا الميلاد الثانى يخصان العذارى اللائى لم تعد

لهن أى شهوات جسدانية، بل فقط أمور الفضيلة والروح القدس هى التى بقيت فيهن للمجد، فهذه هى كلمة الرسول الذى دعاه الرب إناءه المختار، والذى أرسله ليكرز بالوصية السمائية «الإنسان الأول من الأرض ترابى، الإنسان الثانى الرب من السماء، كما هو الترابى هكذا الترابيون أيضاً، وكما هو السماوى هكذا السماويون أيضاً، وكما لبسنا صورة الترابى سنلبس أيضاً صورة السماوى» (١كو١٥ :٤٧) فالبتولية تحمل هذه الصورة، القداسة تحملها، الحق يحملها، التلاميذ الذين يملأ الله أذهانهم يحملونها، يحفظون البر مع الديانة، ثابتين فى إيمان ومتضعين فى مخافة، شجعان لكل الآلام، ودعاء فى تحمل الخطأ، مسرعين لإظهار الرحمة، لهم ذهن واحد وقلب واحد فى سلام أخوى.

ويختتم القديس كبريانوس كتابه قائلاً أنه على العذارى الصالحات أن يحفظن سائر هذه الأمور وأن يحببنها ويكملنها، هن اللائى كرسن أنفسهن للرب، وعلى المتقدمات فى الأيام أن يقدمن تعليماً للصغيرات، وعلى الصغيرات أن يقدمن قدوة وحافز إلى قريناتهن، ويختتم القديس كبريانوس كتابه بقوله:

«احتملن بشجاعة، تقدمن روحياً، نلن بفرح
فقط اذكرونا فى ذلك الوقت، عندما تبدأ البتولية تُكافئ فيكن».



عرض لكتاب

الموت

On The Mortality

يستهل القديس كبريانوس كتابه بتقديم وشرح أسباب كتابته، ذلك أنه بالرغم من أن شعبه يتسم بالعقل الصائب والإيمان الراسخ والوداعة ولا يضطربون من كثرة الوفيات، إلا أنه لاحظ أن بينهم منْ هم خائرين غير مجاهدين ويعزى هذا إلى إنحرافهم عن الحق بسبب ضعف تفكيرهم أو قلة إيمانهم أو حياة الترف التى يعيشونها، ولذلك وضع هذا الكتاب ليشد من آزرهم ويوقظ فيهم حماسة روحية مقدسة.

ثم يشرح أن منْ يحارب من أجل الله لابد أن يعرف أنه قد وُضع فى معسكر قاس على رجاء الجعالة الأبدية، ومن ثم لا يضطرب من عواصف هذا العالم ولا يتأثر بها لأن الرب قد سبق وأخبرنا عما سيحدث لنا، وأوصانا وعلمنا لنحتمل كل ما يأتى علينا من حروب ومجاعات وزلازل وأوبئة إلخ، وهذه كلها علامات إقتراب ملكوت الله، فإن إبتدأت تحدث، تحقق بعدها ما وعدنا به الرب «هكذا أنتم أيضاً متى رأيتم هذه الأشياء صائرة، فاعلموا أن ملكوت الله قريب» (لو٢١ :٣١).

لقد أُعدت السماويات لتحل محل الأرضيات، الأمور الجليلة عوضاً عن

الباطلة، الأبديات عوضاً عن الفانيات، ولذلك يتساءل كبريانوس «فما الداعى إذاً للقلق والجزع!!».

فليس من أحد يعرف هذا الميراث والمجد ويرتعب إلا الذى لا رجاء له ولا إيمان، لأن من يرهب الموت «لايريد الذهاب مع المسيح، ومن لا يريد الذهاب مع المسيح هو ذاك الذى لا يؤمن أنه سيملك مع المسيح إلى الأبد».

ويقدم كاتبنا سمعان الشيخ مثالاً للإشتياق إلى الإنطلاق، فقد تمسك بمواعيد الله بإيمان كامل، ووعد أنه لن يرى الموت قبل أن يعاين المسيح، وما إن جاء المسيح طفلاً إلى الهيكل مع أمه وعرفه بالروح حتى أدرك أنه لابد أن يموت وينطلق فى هذه اللحظة، وفى فرحته طلب أن يطلق بسلام «الآن اطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك» (لو٢ :٢٩) شاهداً أن خدام الله عندما ينسحبون من وسط عواصف هذا العالم يدركهم السلام، فالحرية، فالهدوء والطمأنينة.

ويؤكد كبريانوس «إننا بالموت نبلغ ميناء وطننا، إلى الراحة الأبدية، وبه ننال الأبدية.... هذا هو سلامنا وهدوءنا النابع عن الإيمان وراحتنا الثابتة الأبدية».

فليس للمؤمن فى العالم إلا حرب دائمة مع أبليس وجهاد مستمر ضد سهامه وسيوفه، فحربنا قائمة ضد محبة المال والكبرياء وحب الظهور، وجهادنا على الدوام ضد الشهوات الجسدية وإغراءات العالم، فالعدو يحاصر فكر الإنسان من كل جانب، وبالجهد يقدر الفكر أن يدافع ويقاوم، فإن

إستهان بحب المال، ثارت فيه الشهوات، وإن إنتصر على الشهوات أصابه حب الظهور، وإن غلب حب الظهور إلتهب فيه الغضب والكبرياء، وأغراه السكر بالخمر، ومزق الحسد وفاقه مع الآخرين وأفسدت الغيرة صداقاته.

ويتعجب الشهيد كبريانوس أنه بالرغم من كثرة الإضطرابات التى تجابهها الروح كل يوم والمخاطر العظيمة التى تحدق بالقلب، إلا أنه يبتهج ببقائه طويلاً على الأرض وسط حروب الشيطان!! مع أنه كان الأجدر بنا أن نوجه كل إشتياقاتنا ورغباتنا إلى الإسراع للإلتقاء بالمسيح عن طريق الموت، لأن الرب نفسه علمنا «الحق الحق أقول لكم أنكم ستبكون وتنوحون والعالم يفرح، أنتم ستحزنون ولكن حزنكم يتحول إلى فرح» (يو١٦ :٢٠)، فمنْ منا لا يتمنى أن يكون بلا حزن؟! منْ منا لا يشتاق لنوال الفرح؟! وقد أعلن الرب نفسه وقت تحول حزننا إلى فرح عندما قال «ولكن سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم» (يو١٦ :٢٠) ويعلق كبريانوس «ما دام فرحنا يكمن فى رؤية المسيح، فأى عمى يصيب فكرنا وأى سخافة تنتابنا متى أحببنا أحزان العالم وضيقاته ودموعه أكثر من الإسراع نحو الفرح الذى لن ينزع منا؟!».

ويعود كبريانوس ليجيب هو نفسه على سؤاله، شارحاً أن سر محبتنا للعالم وإرتباطنا به يكمن فى عدم ثقتنا فى حقيقة الأمور التى وعدنا بها الله، ويسأل قراءه «لو وعدكم إنسان عظيم ذو مكانة، أما تثقون فى وعده، دون أن تظنوا أنه سيخدعكم، لأنكم تعرفون أنه صادق فى كلماته قادر فى أفعاله؟!» فكم بالأحرى يجدر بنا عندما يكلمنا الله ألا نشك فى وعوده بالأبدية، وإن شككنا نكون غير عارفين لله قط وغير مطيعين للمسيح معلم

المؤمنين، وهذا الشك يجعل الإنسان غير مؤمن حتى بالرغم من وجوده فى الكنيسة بيت الإيمان!!».

وبروح الإستعداد للإستشهاد التى كانت فيه يقول كبريانوس «يا له من نفع نناله بإنطلاقنا من هذا العالم!!» ويدلل على ذلك بما قاله الرب لتلاميذه عندما حزنوا لأنه كان سينطلق، فقد قال لهم «لو كنت تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت امضى إلى الآب» (يو١٤ :٢٨) وهكذا يعلمنا أن نفرح عند رحيل أحد أحبائنا من هذا العالم ولا نحزن، متذكرين قول الحكيم بولس «لى الحياة هى المسيح والموت ربح» (فى١ :٢١) فالموت أعظم ربح، ربح لا نستطيع أن نناله بواسطة هذا العالم أو بخطايا الجسد ورذائله، إذ به نترك الأتعاب المحزنة ونتحرر من أنياب الشيطان السامة، ونذهب إلى دعوة السيد المسيح لنا فرحين بالخلاص الأبدى.

ومن الحديث عن الموت ينتقل معلمنا أسقف قرطاجنة إلى الحديث عن الألم ويناقش نقطة هامة، فقد كان البعض يظن أنه لا يجب أن يخضع المسيحى للموت، معتبرين أن المرض يجب ألا يصيب إلا غير المؤمنين، ويرفض كبريانوس هذا الفكر كلية، إذ لو كان الأمر كذلك لكان المسيحى يؤمن لكى يتمتع بالعالم ولكى يتقى خطر أمراض هذه الحياة، وليس كإنسان يجاهد ويتألم على الأرض ليُكلل ويفرح فيما بعد.

ثم يناقش تساؤل البعض عن سبب خضوعنا للموت كالوثنيين وغير المؤمنين قائلين: «فيما إذاً لا نشترك معهم فى هذا العالم، ما دام لا يزال جسدنا خاضعاً للناموس الذى علينا حسب الميلاد الأول (الجسدى) مشتركين فى ذلك (الموت) مع الآخرين؟».

ويشرح فى إجابته على هذا التساؤل أننا نشترك مع البشرية فى كل ما يخص الجسد مثلنا مثل باقى البشر تماماً، طالما نحن فى هذا العالم، لكى نتميز عنهم فى الروح. وحتى يلبس هذا الفاسد عدم فساد، وهذا المائت عدم موت، ويقودنا الروح القدس إلى الآب، نشترك مع غير المؤمنين فى كل شئ، فإذا حدث قحط، لا يميز بين المؤمن وغير المؤمن، وإذا تعرضت مدينة لغزو، شمل السبى الجميع بلا تفرقة، وإذا جفت الأمطار، أصابت المجاعة الجميع، وإذا تحطمت سفينة، غرق كل من على متنها بلا تمييز، وهكذا يعانى الجميع من أمراض العيون والحمى.... إلخ.

لكن إذا عرف المسيحى إيمانه وشروطه، لتعلم أنه يجب أن يحتمل آلام أكثر من غير المؤمنين الذين فى العالم، طالما يجاهد أكثر ضد حروب الشيطان، ولذلك يقول الكتاب المقدس «يا بنى إن أقبلت لخدمة الرب الإله أعدد نفسك للتجربة» (حكمة يشوع ٢ :١) وأيضاً «كل ما أتاك فاقبله واصبر على الوجع فى إتضاعك كن صبوراً، لأن الذهب يجرب بالنار والناس المقبولون يجربون فى آتون التواضع» (حكمة يشوع٢ :٤، ٥).

ثم يقدم كبريانوس ـ كمعلم حكيم ـ عدة أمثلة لشخصيات كتابية إختبرت الألم ليدلل على أن الآلام والأحزان لا تتعارض مع الإيمان بل تزكيه، ويبدأ بمثال أيوب البار الذى لم ينهزم بفقدان ثروته وموت أولاده وأحزانه الكثيرة بجانب قروحه ودوده، بل على العكس تزكى مظهراً قوة إحتماله بجهاده فى الآلام المبرحة قائلاً «عرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى الرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً» (أى١ :٢١) وعندما أثارته زوجته وأغوته لكى يخطئ إلى الله ويتذمر، أجابها

«تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات، الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل، فى كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه» (أى٢ :١٠) ولذلك شهد الرب عنه قائلاً «هل جعلت قلبك على عبدى أيوب لأنه ليس مثله فى الأرض، رجل كامل مستقيم يتقى الله» (أى١ :٨).

ثم يقدم كبريانوس مثله الثانى: طوبيا، فهذا قد إحتمل فقدان بصره بعد أن صنع أعمال الخير وأظهر روح الرحمة بصورة عجيبة ومجيدة، وكان فى كارثته يخاف الله ويباركه، وبالرغم من جسده المتألم كان يزداد شكراً لله (طو٢ :١٤) وكانت زوجته أيضاً تعيره قائلة له أين هو ربه لينظر إلى ما يحتمله من آلام، أما هو فكان يتقوى بخوف الله ويتشدد متسلحاً بإيمانه محتملاً الآلام غير مستسلم لضعف زوجته التى كانت تجربه أثناء ضيقاته، وهكذا تزكى طوبيا بالأكثر أمام الله بإحتماله الألم، ومدحه الملاك روفائيل بعد ذلك «أما أنا فأظهر لكما الصحيح ولا أخفى عليكما كلمة من الحديث المكتوم، والآن لما كنت تصلى أنت وسارة كنتك أنا قدمت ذكر صلواتكما أمام الرب وحينما كنت تدفن الموتى كذلك كنت مرافقاً لك، ولأجل أنك مقبول لدى الله كانت هذه التجربة لتمتحنك وإذ كنت لم تنس الله ولم تفتر عن عمل الصدقات كنت معك، والآن هذه أوفدنى الرب حتى أشفيك أنت وكنتك سارة، أنا روفائيل الملاك أحد السبعة الوقوف أمام الله الذين يقدمون صلوات القديسين ويجوزون عابرين أمام مجد الرب» (طو١٢ :١١-١٥).

والمثال الثالث هو الرسل الأبرار الذين لم يتذمروا بسبب الضيق بل كانوا يتقبلون كل ما يحدث لهم فى العالم بشجاعة وصبر، على عكس الشعب

اليهودى الذين كانوا عصاة دائمى التذمر على الله كما شهد بذلك فى سفر العدد «فتكف تذمراتهم عنى لكى لا يموتوا» (عد١٧ :١٠).

أما المثال الرابع فهو إبراهيم أبو الآباء الذى سُر به الله لعدم تذمره بسبب ابنه، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يحتمل فقدان ابنه عندما يموت طبيعياً، فكيف يكون حاله إذا أُمر بذبحه!! إن الإنسان يحتاج إلى خوف الله والإيمان به حتى يستطيع أن يقبل كل شئ حتى ولو كان فقدان ممتلكاته الخاصة أو نياحة زوجته أو أولاده أو أحد أحبائه، فلا تكون هذه الأمور عثرة له بل يجب أن يحارب ويجاهد، ولا يسمح لها أن تضعف إيمانه بل يظهر قوة فى نضاله، لأن الثقة فى البركات العتيدة تجعلنا نزدرى بأحزان الزمان الحاضر، ولابد أن نعلم أنه بدون معركة لا توجد نصرة، وبالتالى لا تكون هناك أكاليل للمنتصرين، فربان السفينة يظهر براعته الحقيقية وسط العواصف، والجندى يتزكى فى الحرب، والجهاد فى الضيق يمحص الفضيلة، ويقول كبريانوس «الشجرة ذات الجذور العميقة لا تحطمها الأعاصير، والسفينة التى يقودها طاقم ماهر لا تترنح إن لطمتها الرياح، وفى الأجران حيث يدرس القمح، تستخف حبات القمح بالريح أما التبن فتحمله الرياح».

ثم يقدم مثاله الخامس والأخير وهو القديس بولس الرسول الذى قال أنه لم يحزن من أجل إنكسار السفينة به وإحتماله الجلدات والعذابات القاسية العديدة، بل انتفع من كل ذلك، إذ بقدر ما احتمل من أحزان بقدر ما تزكى أكثر ولذلك يقول «ولئلا ارتفع بفرط الإعلانات أُعطيت شوكة فى الجسد ملاك الشيطان ليلطمنى لئلا ارتفع، من جهة هذا تضرعت إلى

الرب ثلاث مرات أن يفارقنى فقال لى تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل» (٢كو١٢ :٧-٩).

فمتى كنا فى ضعف وعجز وهلاك، عندئذ تُكمَّل قوتنا وإن جاهدنا يثبت إيماننا ونتكلل، كما هو مكتوب «كما أن الآتون يمتحن أوانى الخزف، هكذا إمتحان الإنسان فى تفكيره» (حكمة يشوع٢٧ :٥)، وبالجملة «إن الفارق بيننا وبين الآخرين الذين لم يعرفوا الله أنه فى الضيق يشتكون ويتذمرون، أما نحن فلن يضلنا الضيق بعيداً عن حياة الفضيلة الحقيقية والإيمان، بل نتقوى بإحتمالنا إياه».

ويخلص القديس كبريانوس من هذه الأمثلة إلى أن الألم ينفعنا لأنه يزكى إيماننا، ويهب مجداً للروح التى تحتمله بكل قوة وبفكر غير مضطرب، فتسلك الطريق الضيق الذى سار فيه الرب وتنال المكافأة..

وبعد هذا الحديث الشيق عن الألم يعود قديسنا ليستكمل حديثه عن الموت ممتدحاً إياه لائماً من يخافه، إذ لا يخاف الموت إلا ذاك الذى لم يولد من الماء والروح، ويخاف الموت منْ لم يختبر صليب المسيح وآلامه، ويخاف الموت من ينتظر بعد الموت موتاً آخر، ويخاف الموت منْ تنتظره نيران الأبدية والعقاب الدائم، ويخاف الموت من يجد نفعاً فى تأجيل موته حتى تتأخر تنهداته وتأوهاته.

ويؤكد كبريانوس أن منْ يموت من المسيحيين إنما يتحرر من هذا العالم، وبينما يعتبر غير المؤمنين أن الموت كارثة، يراه عبيد الله كإنطلاق إلى الخلاص، ورغم أن الأبرار يموتون كالأشرار دونما فرق، إلا أن الأبرار

يذهبون إلى الراحة والنياح والأشرار فيذهبون إلى العقاب.

ويمجد الموت قائلاً: «بالموت ينتقل البتوليون بسلام وأمان فى مجد غير خائفين من تهديدات منْ هم ضد المسيح ولا من مفاسدهم أو شرهم، بالموت يهرب الأولاد من الضيقات التى تفوق قدرتهم وينالون سعادة وغبطة جعالة لصبرهم وبراءتهم، بالموت لا تعود الفتاة المدللة ترهب أيدى المضطهدين وعذاباتهم، بالموت المرعب يتقوى الخائرون ويعود الهاربون إلى الإيمان».

ولما كان وباء الطاعون مستشرياً فى ذلك الزمان، لذلك أوضح كبريانوس لشعبه فائدة هذا الوباء!! فهو يفتك بالناس لكن فى الوقت عينه يختبر بر كل إنسان ويفحص ضمائر البشر، فيكشف عن مدى إهتمام الأصحاء بالمرضى ومدى ترفق الإنسان بقريبه، ومدى تعطف السادة على خدامهم، ومدى إستجابة الأطباء لصرخات المصابين إليهم، فهذا الوباء يحث قساة القلوب أن يتركوا عنهم قساوتهم، والجشعين أن يتركوا عنهم محبة المال، والمتشامخين أن يحنوا رقابهم، والأشرار أن ينزعوا عنهم شرهم.

ويعطينا القديس كبريانوس حكمة روحية هامة فيقول: «الموت يعلمنا ألا نخاف الموت» فهو نافع للمسيحيين إذ يجعلهم مشتاقين للإستشهاد، فهو بمثابة تدريب لهم، فيدربون فكرهم على أمجاد الثبات، وبالتأمل فى الموت يستعدون للإكليل.

ويتساءل القديس فى دهشة كيف أننا طلب فى صلواتنا أن تعمل إرادة الله فينا بينما نحن لا نريد أن نطيع إرادة الله عندما يدعونا ليخرجنا من هذا

العالم؟! ومادام أسر هذا العالم يبهجنا، فلماذا إذن نصلى قائلين ليأت ملكوتك؟! ولماذا نطلب فى صلوات وطلبات كثيرة أن يسرع يسوع بمجئ ملكوته إن كانت إشتياقاتنا هى طاعة الشيطان هنا على الأرض؟!

وإنطلاقاً من هذه الروية المسيحية عن الموت وبركاته، يجب ألا نبكى على الذين يتحررون وينطلقون من هذا العالم، إذ أنهم قد رحلوا عنا كمسافرين سبقونا، أو كبحارة اعتادوا على ذلك، فنشتاق إليهم لكن لا ننتحب عليهم، وليس لنا أن نلبس ثياباً سوداء عند نياحتهم طالما أنهم قد لبسوا الثوب الأبيض هناك فى الأبدية.

ويرى كبريانوس أننا فى حزننا على المنتقلين نناقض إيماننا وتعليمنا، وليس هناك فائدة من أن ننادى بالفضيلة بأفواهنا إن كنا نخالف الحق بأعمالنا.

ولهذا كان الرسول بولس يوبخ الذين يحزنون على رحيل أصدقائهم وينتهرهم لائماً «من ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكى لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم، لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه» (تس٤ :١٣، ١٤).

فالرسول يقول أن الذين يحزنون على رحيل أحد أصدقائهم، هم الذين لا رجاء لهم، أما الذين يعيشون فى الرجاء ويؤمنون بالله ويثقون أن المسيح قد مات عنا وقام، فلا يحزنون لأن المسيح نفسه يعلمنا قائلاً «أنا هو القيامة والحياة منْ آمن بى ولو مات فسيحيا وكل منْ كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد» (يو١١ :٢٥-٢٦).

ويؤكد كبريانوس أن الموت عبور إلى الأبدية، إذ بدون الرحيل عن هذه الحياة لن نبلغ الحياة الأبدية، والموت ليس نهاية بل هو مجرد عبور وممر مؤدى إلى الأبدية، وبه يتحقق الوعد «فإن سيرتنا نحن هى فى السماوات التى منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة مجده» (فى٣: ٢٠-٢١).

وبحكمة روحية يشرح القديس كبريانوس أن الله أخذ أخنوخ لأنه أرضاه «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» (تك٥: ٢٤)، فعندما يسر الله بإنسان، يكون هذا الإنسان مستحقاً أن ينتقل من وباء هذا العالم، ويعلمنا الروح القدس بسليمان أن الذين يرضون الله يؤخذون مبكراً حتى لا يتسخون بتأخيرهم أكثر فى هذا العالم بوبائه فيقول «كان مرضياً لله فأحبه وكان يعيش بين الخطاة فنقله، خطفه لكى لا يغير الشر عقله» (حك٤: ١٠-١١).

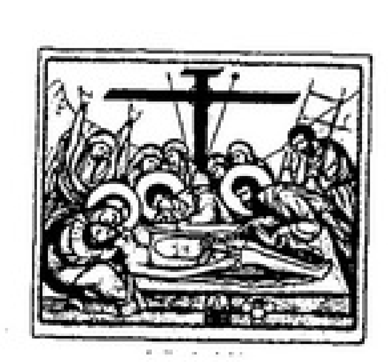
ويتساءل كبريانوس مستنكراً «إن كان العالم يبغض المسيحى، فلماذا يحب المسيحى هذا العالم؟ مع أنه يجدر به أن يتبع المسيح الذى أنقذه وأحبه؟!».

إننا نتطلع إلى الفردوس كوطننا، والآباء البطاركة كآباء لنا، لذا يجب أن نسرع بل ونجرى لكى ننظر مدينتنا ونحيى آباءنا. ويصف كبريانوس عظمة مجد الملكوت والحياة الأبدية شارحاً أن هناك الشركة المجيدة مع الرسل، هناك جوقة الأنبياء المتهللين، هناك جموع الشهداء غير المحصيين المتوجين بالنصرة فى صراعهم ضد الشهوات، هناك جموع البتوليين الفائزين الذين

قهروا شهوات الجسد بعفتهم، هناك الرحماء مكللين، هؤلاء الذين صنعوا البر بإطعامهم الفقير ومساعدتهم له وقد حفظوا وصايا الرب وحولوا ممتلكاتهم الأرضية إلى كنوز سمائية.

ويختتم كبريانوس كتابه بقوله:

«لينظر الله إلى شوقنا العظيم، وليتطلع المسيح الرب إلى هدف ذهننا وإيماننا، فهو الذى يعطى الجعالة العظيمة التى لمجده لأولئك الذين لهم رغبة عظيمة فى تكريمه».



عرض لكتاب

فائدة الصبر

On The Benefit Of Patience

يبدأ القديس كبريانوس كتابه هذا بتأكيده على أهمية أن يتحلى قراءه بالصبر حتى ينتفعوا منه، إذ بدون الصبر لا يمكن أن تأتى الدروس ولا العظات بمنفعة، ويقول أنه لم يجد ما هو أعظم أهمية لأجل حياتنا ومجدنا من التمسك بوصايا الله بطاعة نابعة من المخافة والتكريس، وعلى وجه الخصوص الوعى بإحتياجنا للصبر.

ثم يشرح أسقف قرطاجنة أنه بعيداً عن الله لا يوجد صبر، والفلاسفة الرواقيون الذين يقولون أنهم يتحلون بالصبر، لا يمكن أن يكونوا صبورين فعلاً بل صبرهم هذا كاذب وزائف مثل باقى حكمتهم، إذ كيف يمكن لأحد أن يقول أنه يعرف الصبر دون أن يعرف صبر الله؟ والرب نفسه يحذر هؤلاء الذين يعتقدون أنهم حكماء فى هذا العالم فيقول «تبيد حكمة حكمائه ويختفى فهم فهمائه» (أش٢٩: ١٤) وبالمثل أيضاً الرسول المبارك بولس الذى إمتلئ بالروح القدس، عندما أُرسل ليكرز للأمم، يشهد ويقول فى تعليمه «انظروا أن لا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح، فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً» (كولوسى٢: ٨، ٩) وفى موضع آخر يقول «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلاً لكى يصير حكيماً

لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بمكرهم، وأيضاً الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة» (١كو٣: ١٨-٢٠).

وهكذا إذ ليس لهؤلاء الرواقيين الحكمة الحقيقية، لا يمكن أن يكون فيهم الصبر الحقيقى، وبينما سمات الإنسان الصبور هى الإتضاع والوداعة، نجدهم بعيدين تماماً عن الإتضاع والوداعة، بل هم فى الواقع مغروروون ومتكبرون، وإذ هم مسروروون جداً بأنفسهم، لا يمكن أن يجد الله مسرته فيهم، إذاً من الواضح أنه حيث يوجد التفكير المتكبر المتحرر لا يمكن أن يوجد الصبر الحقيقى.

وبعد أن تحدث كبريانوس عن الفلاسفة الرواقيين وحكمتهم الباطلة وصبرهم الزائف، يصف المسيحيين مقارناً إياهم بهؤلاء الفلاسفة، فالمسيحيون فلاسفة ليس فقط فى كلامهم بل وفى أعمالهم أيضاً، لا يدعون أنهم حكماء بأن يرتدوا زى خاص مميز (+)، بل هم حكماء حقاً، لا يتفاخرون فقط بالفضائل بل لهم فعلاً خبرة هذه الفضائل وممارستها، لا يتحدثون فقط عن الأمور السامية النبيلة، بل يعيشون فعلاً حياتهم بحسب عقيدتهم، ولذا يحثنا كبريانوس كخدام وعباد لله على أن نظهر ذلك الصبر الذى هو ثمرة الخضوع الروحى والذى تعلمناه من تعاليم السماء، لأننا نقتنى هذه الفضيلة بالشركة مع الله، فالصبر يبدأ منه، وهو مصدر بهاء الصبر وكرامته، وأصل وعظمة الصبر تنبع من الله صانعه وسيده، ويجب أن نحب كل ما هو عزيز عند الله، وإذا كان الله هو ربنا وأبونا، لذا يجب أن

+) كان الفلاسفة يتميزون بزى خاص مميز لهم ... لذا كتب العلامة ترتليان كتابه «العباءة» . انظر كتابنا «العلامة ترتليان» ضمن سلسلة إكثوس IXΘYΣ .

نتبع صبره، هو الرب والآب لنا فى وقت واحد، لأنه من الواجب على الخدام أن يطيعوا ومن الخطأ للأبناء أن يعصوا.

وكى نفهم ونتعلم أن الصبر هو من الله، وأن الإنسان الصبور والعطوف الوديع إنما يتشبه بالله الآب، أعطانا الرب وصايا وتعاليم لأجل الخلاص فى إنجيله ونطق بالتحذيرات الإلهية كى يصير تلاميذه كاملين «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم احبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم احسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم، أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك، وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون، أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا، فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (مت٥:٤٣-٤٨).

وعلمنا أننا سوف نصير أبناء وبنات كاملين لله إذا سكن صبر الله أبينا فينا، وإذا صار الشبه الإلهى الذى فقده آدم بخطيته واضحاً ومشرقاً فى أعمالنا.

ويجد القديس كبريانوس فى السيد المسيح أعظم مثال ونموذج للصبر، فرب المجد الذى هو إلهنا وربنا لم يعلمنا الصبر بكلماته فقط بل أكمله فى أعماله هو، وإذ قال أنه جاء إلى الأرض ليصنع مشيئة أبيه، نجد أن من الفضائل العجيبة التى كانت دليلاً على عظمته الإلهية، أنه حفظ صبر أبيه

بقوة إحتماله، وسائر أعماله منذ اللحظة الأولى لتجسيده تتميز بحضور صبره، لأنه بنزوله أولاً إلى الأرض من السماء أظهر أنه لم يستنكف أن يتخذ جسداً إنسانياً، وبينما كان بلا خطية لم يستنكف أن يحمل خطايا الآخرين، بل وسمح أن يُذبح لأجل خلاص الخطاة رغم أنه كان بريئاً بلا خطية....

وهكذا اعتمد الرب بيد خادمه، وذاك الذى يغفر الخطايا لم يمتنع أن يغسل جسده فى مياه التجديد، لقد صام أربعين يوماً لكى يطعم الآخرين، جاع وصام حتى يمكن لهؤلاء الذين كانوا يتضورون إلى الكلمة (اللوغوس) أن يشبعوا بخبز السماء، جرب من الشيطان واكتفى بأن يهزمه بالكلمات فقط، لم يعامل تلاميذه كسيد، بل عاملهم بالعطف والوداعة وأحبهم محبة أخوية لدرجة أنه لم يترفع عن أن يغسل أقدامهم، وهكذا بالرغم من أنه ربهم، إلا أنه قدم لهم مثالاً عن كيف يجب أن يسلك الخادم مع رفقاءه وزملاءه وإخوته.

وحقاً يجب ألا نتعجب من معاملته لتلاميذه الذين أطاعوه، عندما نرى كيف كان يظهر أعظم صور الصبر فى تعامله مع يهوذا، الذى بالرغم من أنه عرف أنه عدوه وخائنه، قدم له الطعام ولم يرد أن يفضحه علانية بل وحتى لم يرفض قبلته.

أى صبر أظهر فى تعاملاته مع اليهود؟! لقد جعل عديمى الإيمان يثمرون بالإقناع، وأجاب برقة على هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يمتحنوه، مظهراً رحمة ورأفة مع المتكبرين وإتضاع مع مضطهديه، ومعلناً مشيئته ـ

حتى فى ساعة صلبه وآلامه نفسها ـ فى أن يجمع ويحتضن هؤلاء الذين ذبحوا الأنبياء وجدفوا على الله.

وفى ساعة صلبه نفسها، وقبل أن تبلغ القسوة بصالبيه أن يقتلوه ويسفكوا دمه، استمع بصبر إلى التوبيخات والسخرية التى كانت توجه له، واحتمل البصق عليه، بينما هو نفسه قد سبق واستعمل بصاقه ليعيد لرجل أعمىٍ بصره، لقد تكلل بالشوك وهو الذى يكلل الشهداء بالزهور الأبدية، لقد عرى من ثيابه البشرية ليكسونا بثوب الأبدية وعدم الموت، لقد قبل المرارة وهو الذى يقدم لنا طعام السماء، أُعطى خلاً ليشرب وهو الذى يهبنا كأس الخلاص، ورغم أنه كان بلا عيب، لكنه أُحصى مع الأثمة.... الحقيقة أفسدها شهود زور، والديان العادل دِينَ هو نفسه، وكلمة الله أُقتيد فى صمت إلى الذبح.

وبينما إضطربت النجوم أمام صليب الرب، واحتارت عناصر الطبيعة، وبينما الأرض إرتعدت والشمس أظلمت، لم يصدر منه أى صوت أو حركة، وفى آلامه لم يقدم دليلاً أو إشارة على عظمته، إذ كان لابد أن يحتمل كل شئ حتى النهاية حتى يمكن لصبره الكامل التام أن يبلغ ملئه وكماله.

وحتى بعدما تألم، يقبل قاتليه إذا تابوا وأتوا إليه، وبعظمة صبر الخلاص، لا يستقصى أحداً من الكنيسة، بل وحتى الأعداء والمجدفين على اسمه إذا تابوا عن خطيتهم واعترفوا بالخطايا والجرائم التى ارتكبوها، يمكن أن ينالوا ليس فقط غفران خطاياهم، بل وأيضاً جعالة ملكوت السموات، ويتعجب

كبريانوس قائلاً: «ما الذى يمكن أن يكون أكثر كرماً أو صبراً من ذلك؟! فحتى الذى سفك دم المسيح يمكن أن يتجدد بهذا الدم» ... هذه هى طبيعة صبر المسيح، ولو كانت غير ذلك لم يكن للكنيسة بولس رسولاً....

وهكذا إذا كنا نحن أيضاً مع المسيح وفى المسيح ولبسنا المسيح، وإذا كان هو طريق الخلاص، إذاً لابد أن نتبع خطوات المسيح فى طريق الخلاص ونسير بحسب مثاله كما يعلمنا يوحنا الرسول «من قال أنه ثابت فيه ينبغى أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً» (١يو٢ :٦) وبطرس أيضاً يعلم نفس التعليم فى رسالته «المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثالاً لكيِ تتبعوا خطواته، الذى لم يفعل خطيه ولا وُجد فى فمه مكر، الذى إذ شتم لم يكن يشتم عوضاً وإذا تألم لم يكن يهدد بل كان يُسَلم لمنْ يقضى بعدل» (١بط٢ :٢١-٢٣).

ومن مثال الصبر الكامل الذى للسيد المسيح ينتقل القديس كبريانوس إلى العهد القديم ليستعرض عمل فضيلة الصبر فى البطاركة والأنبياء والأبرار، ويقول أنهم لم يهتموا بأى من فضائلهم أكثر من صبرهم:

هابيل كان أول من إستشهد عندما تألم كإنسان بار ولم يقاوم أخاه الذى قتله بل عامله بإتضاع ووداعة.

وإبراهيم الذى آمن بالله، عندما جُرب فى ابنه لم يتردد أو يتأخر فى أن يطيع وصايا الله بالصبر التام الذى للتكريس.

وإسحق الذى كان مثالاً وصورة لذبيحة الرب وقُرب على المذبح ليُذبح، نال كرامة بصبره التام.

ويعقوب الذى هرب من بلدته بسبب أخيه، رحل منها بصبر، بل وأظهر صبراً أعظم فيما بعد عندما ربح أخاه مرة ثانية بتضرعه وبعطاياه بالرغم من أنه كان (أى عيسو) فى ذلك الوقت أكثر تمرداً وقسوة.

ويوسف، بعد أن باعه إخوته، ليس فقط سامحهم بصبر، بل بكرم ومحبة أعطاهم عطايا من القمح عندما أتوا إليه.

وموسى الذى كان يُدان دوماً من شعبه الجاحد عديم الإيمان، أظهر صبره ورفقته فى صلواته إلى الله لأجلهم.

وداود الذى من نسله جاء المسيح بحسب الجسد، أظهر صبراً مسيحياً عظيماً وعجيباً فى الفرص العديدة التى كان يمكنه فيها أن يقتل شاول الملك، رغم أن الملك كان يسعى لقتله، وحتى عندما أُسر شاول أخيراً، قرر أن يتركه سالماً دون أن ينتقم منه، بل أنه إنتقم لشاول ممنْ قتله!!

الكثير من الأنبياء ذُبحوا، الكثير من الشهداء كُرموا بموت مجيد، وجميعهم نالوا أكاليل سمائية بمديح وكرامة الصبر، لأن أكاليل الحزن والألم لا يمكن ربحها إلا إذا سبق الصبر هذه الآلام والأتعاب.

ويشير كبريانوس أيضاً إلى العقوبة التى أنزلها الله بآدم عندما سقط فى تعدى الوصية والناموس الذى أعطى له، إذ منها نتعلم كيف يجب أن نكون صبورين فى هذه الحياة إذ وُلدنا لنجاهد مع متاعبها، فالله يقول لآدم «لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى

تعود إلى الأرض التى أُخذت منها، لأنك تراب وإلى التراب تعود» (تك٣:١٧-١٩) ونحن جميعاً تحت هذه الأتعاب حتى يأتى الموت على الأرض كلها ونرحل منها، لأننا فى جميع أيامنا لابد أن نحزن ونتألم، ولابد أن نكسب خبزنا اليومى بعرق عملنا.

ويستطرد القديس كبريانوس الشهيد متحدثاً عن الصبر فى إحتمال أتعاب وآلام هذا الزمان الحاضر وهذه الحياة، فكل واحد منا عندما يولد ويأتى إلى العالم، يبدأ بالدموع، وبالرغم من أنه يجهل كل شئ ولا يعرف أى شئ على الإطلاق، إلا أنه فى الساعات الأولى لولادته، يعرف معنى ذرف الدموع والبكاء، ونستمر طوال حياتنا نبكى عند أتعاب ومشاكل وإهتمامات هذه الحياة البشرية، لأنه طالما أن هذه الحياة مستمرة، يكون هناك تعب وكد، ولا يمكن أن تكون هناك تعزيات تعين من يحتملون هذه الأتعاب إلا بالصبر.

وبينما التحلى بالصبر نافع وضرورى للجميع، هو نافع وضرورى بصفة خاصة لنا نحن الذين نحارب ونجرب أكثر من قبل الشيطان، إذ علينا أن نقاتله ونحاربه فى خط المواجهة كل يوم، ونتألم ونرهق من هذه الحروب والمعارك التى نخوضها مع عدونا الخبير هذا، وبجانب هذه الحروب والتجارب، علينا أيضاً أن نتألم فى إضطهاداتنا بسبب خسارة إرثنا، بسبب السجن، القتل، السيف، الوحوش المفترسة، النيران، الصلبان، وبإختصار كل أنواع العذاب والألم تأتى علينا ويجب أن نتحملها ونجتازها بإيمان وبفضيلة الصبر.

والرب نفسه يعلمنا ويقول «قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فىّ سلام، فى العالم سيكون لكم ضيق، لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦ :٣٣) لكن إذا كنا نحن الذين جحدنا الشيطان والعالم نتألم من ضيقات وشرور الشيطان والعالم بعنف وقسوة أكثر، فكم بالأحرى أعظم جداً هو إحتياجنا لنظهر هذا الصبر الذى معونته ورفقته الدائمة سوف تعيننا على إحتمال كل الضيقات التى تأتى علينا.

هذه هى التعاليم التى لربنا ومعلمنا «الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت١٠ :٢٢) وأيضاً «إنكم إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو:٣١-٣٢) فلابد أن نحتمل ونثبت كى بعدما أُعطينا رجاء الحق والحرية، يمكننا أخيراً أن نجد الحق والحرية، وذلك هو ما يعطينا نحن المسيحيين إيماننا ورجاءنا.

ويؤكد كبريانوس أن المسيحى لابد أن يتحلى بالصبر حتى يثمر رجاؤه وإيمانه، لأننا لا نطلب مجدنا هنا أو الآن، بل فى الدهر الآتى كما يقول الرسول بولس «لأننا بالرجاء خلصنا ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً، ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر» (رو٨ :٢٤، ٢٥)، ومن ثم كان الإنتظار والصبر ضروريين للإنسان حتى يكمل ما قد ابتدأ أن يكونه، وحتى ينال ما يؤمن به ويرجوه عندما يعطيه له الله.

وفى موضع آخر يعلم الرسول الأبرار والمجاهدين الذين يصنعون أعمالاً صالحة وبذلك يدخرون لهم كنزاً فى السماء، ويحثهم على الصبر قائلاً

«فإذا حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ولا سيما لأهل الإيمان، فلا نفشل فى عمل الخير لأننا سنحصد فى وقته إن كنا لا نكل» (غلا٦ :٩، ١٠)، فهو يحذرنا لئلا يفشل أحد فى صنع الأعمال الصالحة بسبب عدم صبره، إذ يجب ألا يتذبذب الإنسان ـ سواء بسبب هزيمته فى تجاربه أو إضطرابه ـ فى منتصف الطريق المؤدى للمجد والمدح، ويتسبب فى ضياع كل ما ربحه غير مكمل جهاده، لأنه مكتوب «بر البار لا ينجيه فى يوم معصيته» (حز٣٣ :١٢) وأيضاً «تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤ٣ :١١) فهذا الصوت الإلهى ينبهنا أن نحفظ أنفسنا فى صبر وقوة حتى يمكننا نحن الذين على وشك نوال المكافأة والإكليل أن نحيا فى صبر دائم وهذا يهبنا بدوره أن ننال الإكليل.

كما أن الصبر ليس فقط يحافظ على الفضائل بل وأيضاً يدفع عنا المقاوم ويشجع عمل الروح القدس ويربطنا بشدة بالحقائق السمائية والإلهية، فهو يعارض مقاومة اللحم والجسد التى تهاجم النفس وتجعلها أسيرة.

ويربط القديس كبريانوس بين المحبة والصبر، فرغم أن المحبة هى رباط بين الإخوة وإساس السلام ودعامة وثبات الوحدة، وهى الأعظم من الرجاء والإيمان، إلا أنه إذا نزع منها الصبر وبقيت وحدها لن تصمد، والرسول بولس عندما يتكلم عن المحبة يربطها بالإحتمال المتبادل والصبر فيقول «المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد ولا تنتفخ ولا تحتد ولا تظن السوء وتحتمل كل شئ وتصدق كل شئ وترجو كل شئ وتحتمل كل شئ» (١كو١٣ :٤، ٥، ٧) فالرسول يظهر بذلك أن المحبة تثبت بقوة لأنها تحتمل كل شئ، وفى موضع آخر يقول «محتملين بعضكم بعضاً بالمحبة مسرعين

إلى حفظ وحدانية الروح برباط الصلح الكامل» (أف٤ :٢، ٣) فلا يمكن حفظ الوحدة إلا بحفظ رباط التوافق بواسطة الصبر.

والصبر والإحتمال هما اللذان يعطيانا القدرة على ألا نحلف أو نلعن، ألا نسترد ما أُخذ منا، أن نُضرب ونُدير الخد الآخر لمن ضربنا، أن نغفر لمن يخطئ إلينا ليس سبعين مرة سبع مرات بل نغفر له كل أخطاءه، أن نحب أعداءنا ومضطهدينا ونصلى لأجلهم.

فهذا هو الصبر الذى أظهره إسطفانوس عندما رجمه اليهود، إذ لم يطلب الإنتقام لنفسه بل غفر لقاتليه قائلاً «يا رب لا تقم لهم هذه الخطية» (أع٧ :٦٠)، فهكذا كان يجب أن يكون شهيد المسيح الأول، إذ لم يكن فقط كارزاً بآلام الرب بل وأيضاً متشبهاً بصبره العظيم.

ويتساءل كبريانوس: «وماذا أقول عن الغضب وعدم التوافق والمنافسة التى لا ينبغى أن توجد فى الإنسان المسيحى؟» ثم يستطرد شارحاً أنه متى وجد الصبر الحقيقى فى قلوبنا، لن تستطيع هذه الخطايا أن تجد لها مكاناً فيها، وحتى إذا حاولت أن تخترق القلب، تُطرد سريعاً وتُطرح خارجاً، فيظل القلب موضعاً للسلام يسكنه إله السلام، ولذلك يحذرنا الرسول ويعلمنا «لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم ليوم الفداء، ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث» (أف٤ :٣٠-٣١).

ثم يتحدث أسقف قرطاجنة الشهيد عن فائدة الصبر فى تحمل المرض وتجارب الحياة، فمنذ أن تعدى الإنسان الوصية فقد صحة الجسد وكذلك الحياة الأبدية، ويجب عليه دائماً أن يصارع الوهن والضعف الطبيعى، وهذا

الجهاد لا يمكن تحمله إلا بصبر عظيم.

ومن أجل إختبار الإنسان وتمحيصه تأتى عليه أنواع كثيرة من التجارب مثل فقدان الممتلكات وحرارة الحمى والجراحات المؤلمة، وهنا ليس من شئ يميز الخطاة عن الأبرار إلا موقفهم تجاه الآلام، إذ بسبب قلة الصبر يشكو الخاطئ ويجدف بينما البار يصبر ويحتمل كما هو مكتوب «فى الحزن إحتمل، وفى حالك المتواضعة إصطبر لأنه بالنار يمتحن الذهب والفضة» (يشوع بن سيراخ ٢ :٤، ٥).

ويتخذ كبريانوس من أيوب مثالاً على فعالية الصبر، فقد نصب الشيطان سهامه ضده، وضاعت ثروته ورأى بعينيه هلاك عدد كبير من أبنائه، وبعد أن كان مالكاً غنياً بالخيرات وأباً أكثر غنى بالأبناء، أصبح فجأة بلا ممتلكات ولا أبناء، وفوق ذلك كله ضُرب بالدود الذى أخذ يأكل أعضاءه أيضاً والتى إلتهبت وتقيحت، فليس هناك شئ لم يختبره أيوب فى تجاربه، بل أن الشيطان حاربه أيضاً بإمرأته، وبالرغم من هذا كله لم يدع أيوب نفسه يُصرع بقتالات مؤلمة بل فى وسط هذه الآلامات والإضطرابات بارك الله بإنتصار صبره.

ومن عمالقة الصبر أيضاً طوبيا الذى بعدما أكمل أعمال بر ومحبة، جُرب بفقد البصر لكن بقدر ما احتمل العمى بصبر، بقدر ما صارت له نعمة عظيمة بفضل صبره الممدوح.

وسعياً وراء إيضاح بهاء فضيلة الصبر وفائدتها، يتحدث كبريانوس عن الأتعاب التى يسببها عدم الصبر، فكما أن الصبر بركة المسيح، كذلك فإن

عدم الصبر هو لعنة الشيطان، وكما أن منْ يسكن فى المسيح يكون صبوراً، كذلك الإنسان الذى يتملك شر الشيطان على عقله وذهنه يكون عديم الصبر. ويستشهد كبريانوس بالتاريخ المقدس ليظهر صحة كلامه، فمنذ بداية الجنس البشرى لم يكن لأبليس صبر كى يحتمل خلقة الإنسان على صورة الله، وكان ذلك السبب الأول فى السقوط والهلاك، وآدم بعدم صبره تجاهل وصية الله ووقع فى قبضة الموت ولم يحفظ النعمة الإلهية بحمايتها بالصبر.

وقايين أيضاً بسبب عدم صبره ذبح أخاه بسبب تقدمته.

وعيسو أيضاً فقد حق البكورية بسبب عدم صبره على إشتهائه للعدس.

والشعب اليهودى بسبب عدم صبره وعدم تصديقه للمواعيد الإلهية إنفصل عن الله، وإذ لم يحتمل تأخير موسى الذى كان يتحدث مع الله، تجرأ وطلب من الآلهة الدنسة كى تقوده فى مسيرته، ولأن بنى إسرائيل لم يتحلوا بالصبر، قتلوا الأنبياء والأبرار، بل واندفعوا أيضاً إلى الصليب وسفكوا دم الرب.

وبالمثل عدم الصبر هو الذى دفع البعض للإنحراف عن الأرثوذكسية داخل الكنيسة، ويدفع بعضاً آخر إلى التمرد على سلام ومحبة المسيح.

وهكذا بينما الصبر يهب مجداً، يفضى عدم الصبر بالإنسان إلى الخراب والهلاك.

ويمتدح القديس كبريانوس الصبر، فهو يزكينا ويحفظنا أمام الله، وهو

الذى يهدئ الغضب، ويلجم اللسان، ويقود الروح، ويحرس السلام، ويضبط الشهوات، ويطفئ نيران الكراهية، ويحد من قوة الغنى، ويعزى الفقراء، ويحفظ كمال العذارى وعفة الأرامل.

إن الصبر يجعل الإنسان متضعاً فى غناه، وشجاعاً فى محنه، وهادئاً أمام الإهانات والشتائم، الصبر يعلمنا أن نغفر لمنْ يسئ إلينا، ويعلم المخطئ أن يطلب الغفران دوماً، الصبر يهزم التجارب، يحتمل الإضطهادات، ويتوج عذابات الشهداء.

إنه الصبر الذى يقوى أسس إيماننا، الذى ينمى رجاءنا، وهو الذى ينظم سلوكنا حتى نستطيع أن نتبع المسيح، ويجعلنا أبناء لله بإقتدائنا بصبر الله الآب.

ثم يحذرنا القديس كبريانوس من أن نفقد صبرنا بسبب رغبتنا فى الإنتقام، فالكثير من الناس يصممون على الإنتقام ممن يسيئون إليهم، بينما يجب أن ننتظر بصبر يوم الدينونة الأخير ولا نسرع بالإنتقام لأنه مكتوب «انتظرنى يقول الرب إلى اليوم الذى فيه أخرج ثانية كيما أشهد لأنى قررت أن أخرب الأمم من أجل أن أردك فيها إلى الملوك وأسكب عليهم غضبى» (صفنيا٣ :٨). فالرب يوصينا أن ننتظر بصبر ثابت إلى أن يأتى يوم الإنتقام إذ يقول فى سفر الرؤيا «لا تختم على أقوال نبوءة هذا الكتاب، لأنه هوذا الوقت قريب، منْ يظلم فليظلم بعد ومنْ هو نجس فليتنجس بعد، ومنْ هو بار فليتبرر بعد، ومنْ هو مقدس فليتقدس بعد، وها أنا آتى سريعاً وأجرتى معى لأجازى كل واحد كما يكون عمله» (رؤ٢٢ :١٠-١٢). ولذلك

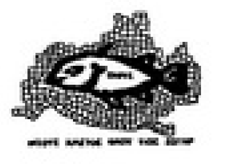
عندما يصرخ الشهداء ويطلبون الإنتقام لأنفسهم، يقول لهم الرب أن ينتظروا ويصبروا حتى يكمل الزمان ويكمل العبيد رفقاؤهم «ولما فتح الختم الخامس نظرت تحت المذبح نفوس الذين قتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التى كانت عندهم وصاحوا بصوت عظيم قائلين حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض فأعطوا كل واحد ثياباً بيضاً وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضاً العتيدون أن يقتلوا مثلهم» (رؤ١٦: ٩-١١).

ويختتم القديس كبريانوس كتابه بالتعجب من صبر السيد المسيح الذى أُقتيد كشاه إلى الذبح، وكخروف صامت أمام الذى يجزه، الذى لم يصح ولم يرفع صوته فى الشوارع، الذى لم يتردد أو يقاوم وهو يقدم ظهره للسياط وخديه للطم ولا حول وجهه عن البصاق، الذى صمت بصبر أمام بيلاطس....

«فياله من صبر عظيم، أن الرب يسوع الذى يُسجد له فى السماء لم يُنتقم له بعد على الأرض!! فلنفتكر فى صبره أيها الإخوة الأحباء فى إضطهاداتنا وآلامنا».



الفهرس



من إصدارات إختوس ΙΧΘΥΣ

١) سلسلة آباء الكنيسة

١) القديس ايريناؤس اسقف ليون .
٢) العلامة بنتينوس السكندرى .
٣) العلامة يوسابيوس القيصرى .
٤) القديس ديديموس الضرير .
٥) العلامة لاكتانتيوس .
٦) القديس ميثوديوس الاوليمبى .
٧) إغريغوريوس صانع لعجائب
٨) القديس إيڤاجريوس البنطى
٩) القديس هيلارى أسقف بواتييه
١٠) الرسالة إلى ديوجنيتس
١١) القديس أبيفانيوس
١٢) أمهات قديسات
١٣) العلامة ترتليان
١٤) القديس إيسيذروس الفرمى
١٥) جُهّال من أجل الله
١٦) ثيؤفان الحبيس
١٧) القديس كيرلس الكبير
١٨) القديس أموناس
١٩) الآباء المؤرخون
٢٠) القديس بوليكاربوس
٢١) القديس يوحنا التبايسى
٢٢) القديس ألكسندروس
٢٣) أفراهات السريانى
٢٤) القديس إيلاريون الكبير
٢٥) يوحنا كاسيان
٢٦) القديس يوستين والمدافعون
٢٧) القديس يعقوب البرادعى
٢٨) البابا أثناسيوس الرسولى